كوكتيل

ثقافة الغد .. لشباب اليوم

رواية مصرية للجيب

قلعة الأسرار

وقصص أخرى

28

د. نبيل فاروق

Looloo
www.dvd4arab.com

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

- مع بدء العـــد التنـــازلى ، نحو القـــرن الحادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكتيـــل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- إلى الحضـــارة ..
- إنها ثقافة الغد .. لشباب اليـوم

د. نبيل فاروق

التمـــــاس (قصة قصيرة)

سيادة النائب العام ..

مقدمه لسيادتكم السجين (م. م.)

لا يمكن لسيادتكم أبدًا أن تتصور مدى ما أشعر به من حرج ، وأنا أكتب لك هذه الرسالة ، من سجن ..... ، حيث أقضى فترة عقوبة ، قدرها عام واحد ؛ بسبب حادثة سرقة ، ألقت بى هنا ، منذ ما يقرب من ثلاثة أشهر ...

وأنا واثق من أن أول ما سيخطر ببالك ، يا سيادة النائب العام ، هو أننى أتقدم بهذا الالتماس للإفراج عنى ، مدعيًا أننى مظلوم ، كما تقول معظم الالتماسات ، التى تصلك فى المعتاد .. ولكن هذا غير صحيح ...

فأنا يا سيادة النائب العام مذنب ...

مذنب ، بكل ما تحمله الكلمة من معان ....

ولكننى لست مجرمًا ....

وهنا تكمن المشكلة ....

أو القضية ، كما أحب أن أسميها ....

لقـد ارتكبـت جريمـة السرقة هذه ، بسبب رفـاق السـوء (كما كان أبى يطلق عليهم ، ويا ليتنى استمعت إليه حينذاك) ..

لقد تحالفوا مع الشيطان ؛ ليزينوا لى الأمر ، ويقنعونى بـأن ارتكاب الجريمة ينقلنى من عالم الصغار إلى عالم الكبار ، وأنـه جواز مرورى إلى الزعامة والاستقلال ..

وصدقتهم ....

وكانت هذه هى النتيجة ....

السقوط ، والفضيحة ، والمحاكمة ، والعار ...

ثم السجن ...

وعلى الرغم من كل المشاعر التى انتابتنى ، وأنـا أدخل السجن لأول مرة ، إلا أن شيئًا مما شاهدته داخله لم يكن يخطر ببالى ، أو يراودنى حتى فى أبشع كوابيسى ..

لقد وجدت نفسى فـى عالم عجيب ، مخيف ، أكثر بشاعة ألف مرة ، من كل ما يتصوره من بخارجه ...

عالم كل لحظة فيه تكفى لإفساد كل شىء جيد ، فى أى مخلوق حى ....

وحديثى هذا لن يروق للمسئولين عن السجون ، وسينفونه بشدة ، ويستنكرون ما أقولـه ، وسيؤكدون أن كل شىء على ما يرام ، وليس فى الإمكان أفضل مما كان ، تبعًا لنظرية إخفاء الرأس فى الرمال ، ما دامت الكارثة لم تحدث بعد ..

ولأننى لست مجرمًا بطبعى ، ومعدنى طيب كما يقولون ، فقد هالنى ما رأيته فى السجن ، وارتعت لما سيئول إليه حالى فيه ...

ففى السجن يا سيدى تنتشر كل أنواع الجرائم ، بأكثر مما يحدث خارجه ..

السرقة .. القتل .. النصب .. تجارة المخدرات ، وغيرها مما لم ولن يخطر ببالكم قط ، ما دمتم خارج أسواره ..

وبنظرة موضوعية ، صنعتها أيام السجن ، الممزوجة بالهلع والذعر والارتياع ، أدركت أننى ، وإن كنت لم أدخل السجن مجرمًا ، فسأخرج منه كذلك بالتأكيد .. فهنا إما أن تصبح ذئبًا ، أو تأكلك الذئاب ...

وذئاب السجن ، إن لم تكن تدرى يا سيدى ، أكثر وحشية وشراسة ألف مرة ، من ذئاب البرية ...

بل قد تجد بعض الرحمة فى ذئاب البرية ...

ولكنك حتمًا لن تجدها عند ذئاب السجن ..

لذا ، فقد وجدت نفسى أتساءل يا سيادة النائب العام ، لماذا لا تنفذون فىَّ حكم الشريعة ؟

لقد سرقت ، واعترفت بذلك ، فلم لا تقطعون يدى ؟

أرجوك يا سيادة النائب العام ..
أرجوك ..
أرجوك ..
أقم علىّ الحد ، الذى أقرّه الله (سبحانه وتعالى) ...
اقطعوا يدى ..
بل يدىّ الاثنتين ..
ولكن لا تضعونى فى السجن ..
لا تصنعوا منى مجرمًا ..
صدقنى يا سيّدى ، إنكم بهذا توفرون كل ما تنفقونه على المسجونين من أموال دافعى الضرائب ، وترهبون اللصوص والمجرمين ، وتقللون معدلات الجريمة .. والأهم من هذا ، أنكم ستنفذون شرع الله (سبحانه وتعالى) ..
ولهذا يا سيّدى ، ولكل ما سبق ، فأنا ألتمس منك الرحمة ..
ارحمنى يا سيّدى واقطع يدىّ ، جزاء ما اقترفته ..
ولكن أخرجنى من هذا الجحيم ، الذى تطلقون عليه اسم السجن ..
أرجوك يا سيادة النائب العام ..
أرجوك ألف مرة .

المعذب (م. م.)

★ ★ ★

اختبر معلوماتك

مرحبًا ..
مرة أخرى نلتقى (كالمعتاد) ، فى هذا الباب الخاص .. جدًا ..
وكما اعتدنا ، سيكون عليكم أن تقرءوا الأسئلة ، وتبحثوا عن الجواب الصحيح لكل سؤال ..
والغش فى هذا الاختبار مقبول ..
بل ومطلوب ..
ابحثوا عن الأجوبة فى أى كتاب ..
أو مجلة ..
أو موسوعة ..
ابحثوا عبر الكمبيوتر ..
وقنوات المعلومات ..
والأنترنت ..

المهم فى النهاية أن تحصلوا على الجواب ..
والأكثر أهمية أن تعتادوا هذا المنهج العلمى للبحث ..
وأن تعتادوا السعى للبحث عن جواب لكل سؤال ..
ليس فى هذه المسابقة التقليدية فحسب ..
ولكن فى كل مجالات الحياة ..
هذا لتصبحوا بالفعل .. مثقفين ..
فهل ترغبون فى أن تصبحوا كذلك ؟!
هل ؟!

★ ★ ★

١ ـ فيلسوف ورياضى إنجليزى ، من ممثلى الواقعية الجديدة ، ورائد المنطق الرمزى ، اهتمّ بالتحليل المنطقى للمفاهيم الفلسفية ، له إنتاج غزير فى فروع فكرية شتى ، اشتهر بدفاعه عن السلام ، ونال جائزة نوبل فى الأدب ، عام ١٩٥٠م ، وهو :

□ برناردشو . □ برتراند راسل . □ أرنولد توينبى .

٢ ـ عشائر الهنود الحمر ، التى كانت تسيطر على المكسيك الوسطى ، فى زمن الفتح الأسبانى ، جاءوا من الشمال ، فى القرن الثانى عشر ، وأسسوا عاصمتهم (ثينوشتيتلان) ، وهى فى موقع مدينة (المكسيك) الحالية ، وهم :

□ الأزتك . □ البوربون . □ الهورلاند .

٣ ـ نبات ثنائى الحول ، اسمه العلمى (كارام كارفى) ، من الفصيلة الخيمية ، موطنه (أوروبا) و (آسيا) ، ويزرع لبذوره العطرية ، التى تستخدم لأغراض طبية ، وتكسب الحلوى نكهة طيبة ، كما تستعمل شرابًا .

□ الكركديه . □ الكراوية . □ الكمون .

٤ ـ (تشارلز داروين) عالم إنجليزى شهير ، درس الطب فى (أدنبره) ، ثم لم يلبث أن تركه ليدرس العلوم ، حيث شغف بالتاريخ الطبيعى ، ووضع نظرية شهيرة عن التطوّر عُرِفَتْ باسمه ، ولقد وضع نظريته هذه فى كتاب بعنوان :

□ التطوّر والوراثة . □ الإنسان والقرد . □ أصل الأنواع .

٥ ـ من كبار الملحنين المصريين ، ولد عام ١٨٩٣م ، وتوفى عام ١٩٢٣م ، بدأ حياته بتلاوة القرآن الكريم ، وإنشاد الموشحات والقصائد النبوية ، سافر إلى (حلب) ، وعاد حاملاً الكثير من غناء أهل الشام ، ومن أشهر رواياته الغنائية (شهرزاد) ، و (الباروكة) ، و (العشرة الطيبة) ، وهو :

□ سيد درويش . □ سلامة حجازى . □ عبده الحامولى .

٦ ـ عنصر فلزى ، رخو ، فضى ، شديد النشاط ، حتى إنه يحفظ مغمورًا فى الكيروسين أو زيت البرافين ؛ لعزله عن الهواء .. ليست له قيمة تجارية عالية ، ولكن مركباته واسعة الاستعمال ، يتحد مباشرة مع عدد من العناصر اللافلزية ، وتوجد بعض مركباته فى الطبيعة ، وهو :

□ المغنسيوم . □ البوتاسيوم . □ الفسفور .

٧ ـ أرخبيل من حوالى سبعمائة جزيرة ، تبعد ٨٠ كم عن الساحل الجنوبى الشرقى لـ (فلوريدا) ، وهو مستعمرة إنجليزية عاصمتها (ناساو) ، بجزيرة (نيوبروفيدنس) ، استوطنها الإنجليز من القرن السابع عشر ، واستخدمت كقواعد عسكرية ، فى الحرب العالمية الثانية ، واسمها :

□ جزر القمر . □ هاواى . □ جزر بهاما .

٨ ـ روائى إنجليزى ، يعدّ من أشهر الكتاب الإنجليز ، فى العصور الحديثة ، من أشهر رواياته : (أوليفر تويست) ، و(دافيد كوبرفيلد) ، و (أوقات عصيبة) ، وتتميَّز رواياته بوصفه الدقيق للشخصيات ، وبعرضها الثرى للحياة الإنسانية ، وهو :

□ تشارلز ديكنز. □ ارنست هيمنجواى. □ أليكسندر سيلكريك.

٩ ـ نبات عطرى ، اسمه العلمى (كروكس ساتيفس) ، يزهر فى الخريف ، وله أزهار بيضاء أو بنفسجية ، يزرع لاستخدامه فى الطب وصناعة العطور ، وهو :

□ الفل . □ الورد . □ الزعفران .

١٠ـ ثالث الخلفاء الراشدين ، يلقّب بذى النورين ؛ لأنه تزوَّج من اثنتين من بنات الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، (رقية) و(أم كلثوم) ، أموى ، من فرع (أبى العاص) ، كان من السابقين إلى الإسلام ، وهاجر الهجرتين ، (الحبشة) و(المدينة) ، وهو :

□ أبو بكر الصديق . □ عثمان بن عفان . □ على بن أبى طالب .

١١ـ (كوريل درو) ، واحد من أشهر برمجيات الرسوم الإليكترونية فى العالم ، التى تعتمد على نظام (فيكتور) ، التى تحتاج إلى أقل قدر من المعلومات ، لصنع الرسوم ، ويستخدمه ما يقرب من ثمانين فى المائة من المحترفين فى العالم ، ولقد نشأ فى :

□ أمريكا . □ كندا . □ اليابان .

١٢ـ (كونان) ، شخصية روائية شهيرة ، لمقاتل همجى ، من عصور ما قبل التاريخ ، مغامراته هى مزيجٌ من البطولة والخيال والفنتازيا ، ولقد صدرت له عدّة مجلات مصوَّرة ، كما قدَّمتها السينما العالمية فى فيلمين شهيرين ، بطولة :

□ أرنولد شوارزينجر . □ فان دام . □ سيلفستر ستالون .

١٣ـ طائر جارح ، قريب الصقر والعقاب ، يطير برشاقة ، ويحوم فى دوائر ، ولا يحرك جناحيه إلا قليلاً ، يأكل الفضلات والجيف وصغار الدجاج ، ويخطف بعض المأكولات ، وهو :

□ البومة . □ الغراب . □ الحدأة .

١٤ـ صخر رسوبى ، يتركّب أساسًا من كربونات الكالسيوم (الكلسيت) ، يتكوّن من تراكم وتصلّب هياكل الحيوانات واللافقاريات البحرية ، أو بالترسيب الكيماوى ، وهو أحد المواد الأساسية فى صناعات البناء ، وهو :

□ الرخام . □ الحجر الجيرى . □ الأسمنت .

١٥ـ والٍ وخطيب عربى ، ولد ونشأ بالطائف ، وانتقل إلى (الشام) ، ولاّه (عبد الملك بن مروان) بلاد الحجاز ، ثم ولاّه على (العراق) ، حيث خطب خطبة شهيرة ، عنّف فيها أهل العراق ، وهدّدهم بالويل والثبور ، وهو :

□ الحجاج بن يوسف الثقفى .

□ عمار بن ياسر .

□ معاوية بن أبى سفيان .

١٦ـ شخصية ثابتة فى مسرحيات (كوميديا الفن) ، فى القرنين السادس عشر ، والسابع عشر ، وهو رجل أسبانى ثرى ، يرتدى السواد دائمًا ، وهو مدع كاذب ، لم يلبث أن ظهر بكثافة فيما بعد ، فى المسرحيات لهزلية لفرنسية ، والأدوار الصامتة الإنجليزية ، وهو :

□ سكاراموش . □ فانتوماس . □ روكامبول .

١٧ـ مادة حلوة بيضاء اللون ، بلّورية ، تحضّر من التولوين بعدّة عمليات ، ليست لها قيمة غذائية ، ولا تعطى سعرات حرارية ، على الرغم من أن حلاوتها تفوق حلاوة سكر القصب بأربعمائة مرة ، وهذه المادة هى :

□ السكروز . □ السكارين . □ سكر العنب .

١٨ـ من أشهر رسامى الفانتازيا والخيال ، فى النصف الثانى من القرن العشرين ، من أشهر أعماله أغلفة سلسلة القصص المصوّرة الشهيرة (طرزان) ، يعتبر من أغلى رسامى العالم سعرًا ، ويعتمد فى رسومه على الصور الضوئية ، التى يلتقطها بنفسه ، وهو :

□ بوريس فاليجو . □ فرانك فرازتيا . □ سلفادور دالى .

١٩ـ عشب حولى قائم ، اسمه العلمى (كوركورس أوليثوريس) ، من الفصيلة الزيزفونية ، موطنه (الهند) ، تؤكل أوراقه مطبوخة ، طازجة أو مجففة ، وهى غنية بالفيتامينات ، وتعتبر من أهم الخضر الصيفية ، وتتكاثر بالبذور ، وهذا العشب هو :

□ الكزبرة . □ الجرجير . □ الملوخية .

٢٠ـ (باتمان) ، واحد من أشهر الشخصيات الخيالية عبر التاريخ ، وله عدة حلقات تليفزيونية ، وأفلام سينمائية معروفة ، إلى جانب عدة سلاسل من القصص المصوّرة ، تصدر بست عشرة لغة ، ومبتكر هذه الشخصية هو :

□ ادجار رايس باروز . □ بوب كين . □ جيرى سيجال .

★ ★ ★

ومرّة أخرى أكرّر ..

مسابقتنا ليست اختبارًا مدرسيًّا ..

إنها مسابقة الكتاب المفتوح ..

ابحث ..

اقرأ ..

استعن بأى مرجع تشاء ..

فالمهم فى النهاية ليس أن تربح مسابقة ..

المهم هو المعرفة ..

والأهم أن يمكنك دومًا إجابة السؤال الشهير ..

هل أنت ..... مثقف ؟!

★ ★ ★

السـيف ..

انطلق صهيلُ جوادٍ عربى أصيلٍ ، يركض فوق رمال الصحراء ، وعلى متنه فارس شاب ، تجاوز سنواتِ عُمره العشرين بعام أو يزيدُ ، وسيم المحيا ، متينُ البنيان ، يطاردُ غزالاً شاردًا ، انطلقَ يعدُو أمامه . محاولاً الفرار ، لولا أن التقط الفارسُ قوسه ، ودسَ فى وتره سهمًا طويلاً ، صوَّبه فى ثبات إلى الغزال المنطلق ، على الرَّغم من اهتزاز جواده ، ثم أطلقه ، ورمى به الغزال فى مقتل ، وهتف بجواده :

ـ رويدك .. لقد أصبنا الهدف .

توقَّف الجَواد المدرَّبُ ، إلى جوارِ الصيدِ تمامًا ، فمَال الفارسُ بجسَدِه كله ، فى مرونة مدهشة ، والتقطَ الصيْد ، ثم حمله بساعد مفتول إلى صهوة الجَواد ، وربَّت عليه ، قائلاً :

ـ ها هو ذا غذاءُ اليوم يا صَديقى .. أعنى غذاء البشر .

أطلق الجوادُ صهيلاً خافتًا ، وكأنه يؤمن على حديث صاحبه ، الذى أمال عنانه ، وقال فى حزم :

ـ هيَا بنا .. سنبدأ رحلة العودة .

انطلق الجوادُ مرَّة أخرَى ينهب الأرض نهبًا ، عائدًا إلى مخيمات القبيلة ، بالقرب من تلك الواحة الوارفة ، فى قلب

الصَّحراء ، وقبل أن يبلُغ منطقة النَّخيل ، لاح من بعيد فارسٌ آخر قادِم من الواحَة ، على متن جواد أدهم .

فقال الفارس الأوَّل لجواده ، وكأنه يتحدَّث إلى صديق عزيز :

ـ يبدو أنه هناك رسالة عاجلة يا صديقى .

بلغهما الفارس الآخر ، وهتف :

ـ (حازم) .. شيخُ القبيلة يطلبُ رؤيتَكَ على الفور .

سأله (حازم) ، وهو يعدل صيده فوق جواده :

ـ أهناك أمرٌ عاجلٌ ؟

أومأ الفارس الآخر برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ بالتأكيد .. ولكن الشيخ لن يُخبرنا كما تعلَم .

ابتسم (حازم) ، وقال :

ـ نعمْ .. أعلمُ يا صديقى .. أعلمْ .

ولكزَ بطنَ جَوادِه بكعبه ، مستطردًا فى حسم :

ـ استدرْ واتبعنى إذنْ .. سنعود إلى الواحَة معًا .

انطلقا متجاورين .. فى طريق العودة إلى الواحة ، وعقل (حازم) لا يحمل سوى فكرة واحدة ، ملأت كيانه كله ..

ما دامَ الشيخُ يطلُبه على هذا النَّحو ، فهُناك أمرٌ عاجل حتمًا ..

عاجلٌ وخطيرٌ ..

كان زَعيمُ القبيلة الشيخُ يجلسُ فى وقار ، داخل خيمته

الخاصة ، تحيط به بعض الطنافس المزركشة ، عندما دلف (حازم) إلى خيمته ، وانحنى نصف انحناءة ، قائلاً فى احترام بالغ :

ـ رهنُ إشارتك يا سيِّدى .

أشار إليه الشيخ ، قائلاً :

ـ اجلس يا (حازم) ، واقترب منى يا ولدى .

جلس (حازم) على قيد متر واحد منه ، وداعب هو لحيته البيضاء فى وقارٍ ، قبل أن يقول فى رصانة :

ـ أنتَ تعرف أبناء عمومتنا بالتأكيد ، فى الواحة الخضراء .

أومأ (حازم) برأسه إيجابًا ، فأضاف الشيخ :

ـ منذ أسبوع واحدٍ تم زفاف ابن عمنا (خالد) ، وابنة أمير البلاد ، وهذا أمرٌ عظيمٌ ورائعٌ . ولقد بلغنا الخبر أمس فحَسْب ، وكان من الضرُورى أن نُرسل إلى (خالد) وقبيلته هديَّة مناسبة ، إعلانًا لفرحتنا واحترامنا ، ولم نجد لدينا ما هُو أفضلُ من هذا .

مدّ يده تحت وسادة قريبةٍ ، والتقط من أسفلها سيفًا من الذهب الخالص ، له مقبضٌ مرصعٌ بالياقوت والزمرد واللؤلؤ ، فهتف (حازم) :

ـ يا لروعته .

أجابه الشيخ :

ـ إنه سيف يخصُّ أحد عظماء الروم ، حصَلَ عليه جدّنا الأوَّلُ ، تقديرًا لشجَاعتِهِ وبسالتِهِ ، أيامَ القتالِ الكبير ، وتوارثتْهُ القبيلةُ ، ضمن ما توارثته ، حتى حانت هذه اللحظة .

قال (حازم) مبتسمًا :

ـ إنها هديَّة رائعَة بالفعل يا سيِّدى .

ناوله الشيخُ السيف الذهبى ، قائلاً :

ـ خُذ يا (حازم) .. إننى أكلفك مهمة توصيل الهديَّة إلى صاحبها .. ستركبُ جوادَك الآن ، وتنطلق على الفور إلى الواحة الخضرَاء ، لتسلمَ السيف إلى (خالد) مع تحياتى وتحياتِ قبيلتنا كلها .

حمل (حازم) السيف فى اهتمام ، وهو يقولُ فى حسْم :

ـ سأبذل قصارى جهدى ، لأداء المهمة كما ينبغى يا سيِّدى .

قال الشيخ فى صرامة :

ـ بل ستبذلُ حياتك نفسها ، لو اقتضى الأمر يا (حازم) .

نهض (حازم) ، قائلاً :

ـ بالتأكيد يا سيِّدى .. سيصل السيف إلى (خالد) بإذن اللّه (سبحانه وتعالى) ، أو أهلك دون هذا .

ورفع قامته فى اعتدادٍ ، وانطلق لأداء مهمته ..

★ ★ ★

انطلق الجوادُ العربىُ ينهبُ الأرضَ نهبًا براكبـه .. حتـى شارفت الشمسُ المغيب ، دون أن يتوقَّف لحظَة واحِدة ، وشـعر (حازم) بالجهد الفائق ، الذى بذله الجوادُ ، فجـذب عنانـه فى رفْق ، وهو يقُول فى لهْجة حانيةٍ ، لا تخلو من الحزم :

ـ كفاك يا صديقى .. لقد قطعنا شوطًا طويلاً اليوم .

خفَّف الجوادُ من سُرعتـه ، ونفخ الهواء بقوةٍ من منخريه ، وأطلَقَ صهيلاً خافتًا ، ثم توقَّف وهو يهـزّ معرفتـه ، وكأنَّمـا ينفض عن نفسِه التعبَ ، فربَّت (حـازم) علـى عنقـه ، وهبطَ عن صهوتـه ، وانـتزع قربـةً جلديَّةً مـن سرجه ، صبَّ بعض الماء منها فى كفه ، وأدناه مـن شفتى الجواد ، الذى ارتشفه فى لهفة عن آخره ، فكرَّر (حازم) العمليَّة مرة ثانيَة ، وثالثَة ، حتَّى اكتفى الجوادُ ، فرفع هو فم القربـة إلـى شفتيه ، وراح يروى عطشه ، ثم أعادها إلى السَّرج ، وقال للجواد :

ـ سنقضى الليلة هُنا يا صديقى ، ونواصلُ رحلتنا غدًا .

أطلق الجوادُ صهيلـه الخـافت مـرة أخـرى ، وكأنمـا يُعلـن موافقته ، فربَّت (حازم) على عنقه مرة أخرى ، وبدأ ينـتزع فرشًـا صوفيًـا من السرج ، يحتفظ بـه معـه ، ليفـترش بعضـه ويتغطى بالبعض الآخر عندما ينـام فى العراءِ ، وهمَّ بوضعه على الرمال ، عندما أطلق الجواد صهيلاً عصبيًا ، وضرب الأرض

بحوافره ، فأثار زوبعـة بالغـة الصغر ، جعلـت (حـازم) يرفـع عينيه فى سرعة إلى الأفق ويتطلَّع فـى اهتمـامٍ حذِر إلـى قافلـة صغيرة من خمسة جِياد ، تقترب من موقعه فى سرعة ..

واعتدل (حازم) ، وأمسكتْ قبضته مقبض سيفه فى تحفُّز ، وعيناه لا تفارقـان الخيول الخمسـة وركابهـا ، الذين اتضحـت ملامحهم تدريجيًـا ، وهـم يقتربـون منـه رويدًا رويدًا ، حتى بدا من الواضح أنهم مجموعة من قطَّاع الطرق ، لمـا يتميزون بـه من ملامحَ شرسَةٍ عنيفةٍ ، ووجوه حادة قاسية ..

ولم يحرِّك (حازم) ساكنًا ، حتى بلغـه الرُّعب ، وإن ظلَّت يدهُ ممسكةً بمقبض السيف فـى قـوةٍ ، وألقـى عليـه الرجـال الخمسة نظرة استخفاف ، قبل أن يقول أحدهم فى خُشونة :

ـ ماذا تفعل هنا يا فتى ؟

أجابه (حازم) فى قوةٍ :

ـ ماذا تفعل أنت ورفاقك هنا .. إنها أرض آبائى وأجدادى .

تبَادل الرجـال نظرةً ساخرة ، ثُم انفجَر كبيرهم مقهقهًـا ، وقال فى شراسة :

ـ أرضُ منْ ؟! يبدُو أنك لا تُدرك من نحنُ .

ومال على جواده ، قائلاً بلهجةٍ آمرةٍ غليظة :

ـ هيَـا .. أرنا ما لديك .

قال (حازم) فى صرَامة :

ـ حذار أن يمسَ أحدكُم خيطًا واحدًا مما أحمله ، وإلا مزقتكُم إربًا ، وبات من العسير أن يميز فأر صغير بقاياكم ، بعضها من البعض .

بدا الغضب فى وجُوههم ، وهتف كبير لهم :

ـ هكذا .

وفى حركة واحدة ، استلّ الخمسة سيُوفهم فى وجه (حازم) الذى تراجَع فى سُرعة ، واستل سيفه بدوره ، هاتفًا :

ـ ويل لكُم .

انقضّوا عليه بسيوفهم وخيُولهم ، وهو واقِف على قدمَيه ، وأطلَق جوادَه صهيل اعتراضٍ واحتجاج ، حينما تقارَعت السيُوف ، وصلْصلت :

ـ وقاتل (حازم) كالأسد ..

قاتل وراحَ سيفُه يضربُ السُيوف الخمسة بكلّ قوةٍ وبسَالةٍ وجسَارَة .. ولكن .. الكثرة تغلب ـ حتمًا ـ الشَجاعة ..

لقد أحاط به الرِّجال الخمسة ، وانهالتْ سيُوفهم عليه من كلّ جانب ، حتَى شعر بنصل سيف يضرب كتفه ، وآخر يدمى جبهته ، ثم أصابه رأس جواد فى صدره ، فألقاه أرضًا ، قبل أن يُهاجمه جوادٌ آخر ، و ...

وكانت الضَربة عنيفَة هذه المرَّة ..

وأظلمت الدنيا ..

وغاب (حازم) عن الوعى بسرعة ..

وأطلق جوادُه صهيلاً قويًا ، وراح يخفت فى أذنه تدريجيًا ..

ثم تلاشَى كل شىء ..

تلاشى تمامًا ..

★ ★ ★

مع أوّل ضوءٍ للشمس ، نشطت كلُّ الكائنَات الحيَّة فى الصَحراء ، وخرجت بعضها من أوكارها ، سعيًا خلف رزقها ، وبحثًا عن طعامها وفرائسها ..

ومن بين هذه الكائنات كان ذلك العقْربُ الأسودُ الصَغيرُ الحجم ، الشديد السُمّيةِ والخطُورةِ ، الذى برزَ من بين الرمال ، وكأنما ينمو من العدم ، ورفع ذيله الأسود السام فى تحفُزٍ ، وهو يتّجه نحو ذلك الجسَد الراقد على رمال الصَحراء دون حراك ..

جسد (حازم) ..

واقترب العقْرب الأسودُ من ضحيتِه الساكنَة ..

وارتفع ذيله السَامُ ..

ولكن الجواد العربى الأصيل أطلق صهيله القوىّ ، وهوى بحافره على العقْرب الأسود ، فسحقه وسط الرِّمال ، ثمَّ ضربهُ بعيدًا ، وكأنمَا يؤمّن لصاحبه المزيد من الحماية ، وبعدها مال

برأسه إلى عنق (حازم) ، وراحَ ينفخُ الهواء فيه من منخريه في رفق قلقٍ للمرة المائة ، منذُ غياب شمس اليوم الماضى ، ثم أطلقَ صهيلاً خافتًا ، ودفع رأس صاحبه برأسِه عدَّة مرات ، حتى سعل (حازم) ، وتمتم :

ـ رويدك .. رويدك .

استعاد وعيه فى بُطء ، وشعَر بآلام شديدة فى كتفه ورأسه ، ولكنه نهض جالسًا ، ونفض الرِّمال عن وجهه وثيابه ، وتحسَّس جُرح جبهته ، والدماء الجافة عليه ، قبل أن يتنهَّد ، مغمغمًا :

ـ عجبًا .. لقد تركونى حيًّا .

كانَ هذا يدهشه فى الواقع ، فقطّاع الطرق الوافدون على بلاده عبر الحدود ، لا يتركون الأحياء خلفهم عادةً ، ولكن ربَّما تصوَّروا أنه قد لقى مصرعهُ ، فاكتفوا بسلب ما لديه ، ورحلوا ..

استعاد عقله ووعيه وإدراكه بغتةً ، فهتف وهو يهبُّ واقفًا :

ـ ربَّاه ! لقد سلبُوا السيف .

اندفع نحو سرج جوادِه ، وبحثَ بسُرعة عن السيف ، الذى يحتفظ به داخل رقعة من الجلد ، واحتقَن وجهه غضبًا وثورة ، عندما لم يعثر له على أثر ، وهتف :

ـ لقد سرقوه !

امتلأت نفسُه بمرارةٍ لا حد لها جعلت الدماء تتصاعد إلى

وبعدها مال برأسه إلى عنق (حازم) ، وراح ينفخ الهواء فيه من منخريه ..

رأسه ، والحزنَ يعتصرُ قلبه بقبضة فولاذية باردة ، وهو يستطرد :

ـ لم نستطع الحفاظ عليه يا صديقى .

جاوبه الجواد بصهيله الخافت ، وكأنه يواسيه فى مصابه ، ولكن (حازم) انتفض قائلاً فى صرامة :

ـ ولكن لا .. لقد أقسمنا أن نوصل السيف إلى الواحة الخضراء ، أو نهلك دونه .

والتفت إلى الجواد ، مستطردًا :

ـ هل سمعتَ يا صديقى ؟ أو نهلك دونه .

وعلى الرغم من آلامه ومرارته وجراحه وثب فوق صهوة الجواد بكل حزم ، وعزم ، وجذب عنانه ، قائلاً :

ـ ولن نحنث بقسمنا قط .

كان واحدًا من فرسان الصحراء .. الذين تعلموا منذ حداثتهم كيف يقرءون الآثار على الرمال ، وكأنها كتاب مفتوح ، لذا فقد راح يتبعُ آثار قطاع الطرق ، فى صبر وأناة ، حتى بلغ تلك المنطقة الجبلية ، على مشارف الصحراء ، مع انتصاف النهار فتوقَّف وألقى نظرة طويلة على الجبل ، قبل أن يغمغم :

ـ يبدو أننا بلغنا وكر اللصوص يا صديقى ..

هبط عن صهوة الجواد ، وربَّت على عنقه ، قائلاً :

ـ الزم الصمت يا صديقى .. وحذار أن ينتبه هؤلاء المجرمون إلى وجودنا ، قبل أن نباغتهم ونستعيد سيفنا الذهبىَ .

خُيِّل إليه ، كما يحدثُ فى معظم الأحيان أن جواده يفهمُ تمامًا ، فقد هزَّ رأسه فى صمت دون أن يطلق صهيله المعتاد ، فابتسم (حازم) ، واتجه إلى الجبل ، وراح يتسلَّقه فى سرعة ومهارةٍ ، حتى بلغ منطقة مرتفعة أمكنه منها أن يطلَّ على مدخل مغارة كبيرة ، يقف على بابها حارسٌ ضخمُ الجثَّة ، يؤكد وجوده أنه وكر قُطَّاع الطرق ، الذين يبحث عنهم .

ولم يكُن (حازم) يملك سلاحًا هذه المرّة بعد أن استولى المجرمون على سيفه وخنجره ، كما استولوا على السيف الذهبىَ ، وعلى قوسه ونشابه أيضًا ..

ولكن هذه لم تكُن أبدًا مشكلة (حازم) ..

لقد تحرك فوق الصخور بكل حذر .. دون أن يصدر عنه أدنى صوتٍ ، حتى انتقى منطقة مناسبة ، وقال :

ـ ألا تضايقك الشمسُ يا رجُل .

انتفض الحارسُ الضَّخمُ من المفاجأةِ ، ورَفَعَ عينيه إلى حيثُ (حازم) فى حركةٍ حادة ، وأسرعت يده إلى مقبض سيفه .. و .. وانقضَّ (حازم) ..

كان من الممكن أن ينقضَّ على الرجُل دون تنبه ، وأن يستغل عاملَ المفاجأة ، ولكنَّ طبيعة الفروسية الكامنة فى

أعماقهِ أبت عليه أن يُهاجم خصمًا فى ظهره ، حتى ولو كان هذا الخَصمُ عملاقًا مسلحًا ..

وكانت الانقضاضةُ ناجحةً للغاية ، فقد سقط الحارسُ الضَّخمُ ،

مع ثقلِ (حازم) ، وتدحرج الاثنان فوق الصخُور ، والحارسُ ينتزعُ سيفه ، قائلاً فى حدة :

ـ أية رياح خبيثة ألقت بك هنا ؟

أمسك (حازم) معصم الحارس بيسراه ، ليمنعه من استخدام السيف ، وهوى على فكه بيمناه ، قائلاً :

ـ بل قُل .. ما أسوأ حظك ، الذى ألقانى فى طريقك .

أصابت اللكمة فكّ الحارسِ كالقنبلة ، فارتجّ لها مخّه داخل جمجمته ، وتراخت لها أصابعه ، التى تمسكُ مقبضَ السيف ، فلوى (حازم) معصمه فى قوةٍ ، وهو يصيبُ فكّه بلكمةٍ أكثرَ عُنفًا ، قائلاً :

ـ ألا تُوافقُنى على هذا الرأى يا رجُل ؟

سقط السَّيف من يدِ الحارسِ ، ولكنّه استجمع قوته ، ودفع (حازم) عن صدره ، وهو يقول :

ـ لا .. لست أوافقك عليها يا صاح .

كان من الواضح أن الحارسَ قوى البنيةِ بالفعل ، فعلى الرغمِ من كلّ ماتلقاهُ من لكماتٍ وضرباتٍ ، هبَّ واقفًا على قدميه ، وانتزعَ خنجره من حزامِه ، مستطردًا فى وحشيّة :

ـ بل ربما كان هذا من سوءِ حظّك أنتَ .

قالها وهوى بخنجرهِ على قلبِ (حازم) .. الذى تفادَى الطعنة بحركةٍ مرنةٍ ، ثم لكمَ الحارس فى معدته ، بكلّ ما يملكُ من قوةٍ ، وأزاحَ يدَه الممسكة بالخنجر بساعده ، قبل أن يحطّم أنفه بلكمةٍ ثانيةٍ ساحقةٍ ..

وكانت هذه اللّكمةُ هى فصلَ الختامِ ، إذ تحطّم لها أنف الحارس ، وزاغتْ عيناه ، ودارتا فى محجريهما ، قبل أن يهوى على وجهه فاقد الوعى ..

وفى سرعة ، التقط (حازم) الخنجر ، ودسّه فى حزامه ،

ثم سارَ إلى حيثُ سقط السَّيف ، وحمله فى قوَّة ، وهو يقول :

ـ إنك لا تشبه سيفى البتَّار ، ولكنك تؤدى الغرض .

اتجه إلى مدخل المغارة مرَّة أخرى ، وعبَره فى حذر ، وهو يمسك السيف فى تحفُّز ، وعَبَر ممرًّا صخريًّا طويلاً ، حتى بلغَ منطقة فسيحة .. يجلس داخلها أربعةُ رجالٍ ، وقد انهمكوا فى إحصاء عددٍ من العملاتِ الذهبيَّةِ ..

وبغتةً ، قفزَ (حازم) وسطهم ، هاتفًا :

ـ هى غنيمةٌ جديدةٌ إذن !

انتفضُوا فى ذعر للمفاجأة ، وقبلَ أن يتحرَّك أحدهم ، كان (حازم) قد طعن أوَّلهم بسيفه ، ثم دارَ على عقبيهِ ، وهوى بنصله على يد الثانى ..

وهبَّ الثالث والرابع للقتال ، ولكن (حازم) أصاب الثالث ، قبل أن يلتقط سيفه ، فى حين شهر الرابعُ سيفه ، هاتفًا :

ـ إنها لحظاتك الأخيرة يا فتى .

التقى السيفان بصليل قوى ، ردَّدته جدران المغارة ، و(حازم) يقول :

ـ إنها لحظتكم أنتم لا أنا .

لم يتقارع السيفان أكثر من لحظاتٍ معدودةٍ ، أدركَ اللصُّ بعدها أنه يبارز فارسًا صنديدًا ، لا يشقّ له غبار ، فهتف :

ـ النجدة .. النجدة يا رفاق .

ولكن أحدًا لم يهبَّ لمعاونته ..

كانوا قد ذاقوا نصل سيف (حازم) بالفعل .. وعلموا أى فارس يقاتلون ، وكانت إصاباتهم تغنيهم ، فانكمشوا فى أماكنهم واكتفوا بمراقبَة القتال بأعين زَائغة ، حتى أدارَ (حازم) سيفه حول نصل سيف خصمه ، وهو يقول :

ـ انتهت اللعبَة يا رجُل .

وبضربَة تحملُ من المهَارة أكثر مما تحملُ من القوَّة ، أطاح بسيف خصمه ، ثم رفع ذبابة سيفه إلى عنقه ، وألصقه بالحائط ، فصاحَ اللصُّ مذعورًا :

ـ لا .. الرحمة .. لا تقتلنى .. أرجُوك .

سأله (حازم) فى صرَامةٍ :

ـ أين سيفى ؟

لوَّح الرجُل بيده فى رعبٍ ، هاتفًا :

ـ سيفك هناك .. إلى جوارِ الحائط .

ألقى (حازم) نظرةً سريعةً إلى سيفه الخاص ، الموضُوع فى غِمْده الجلدى المنقوش ، مستندًا إلى جدار المغارَة ، وقال :

ـ أين السيف الذهبىُّ ؟

قال الرجلُ فى ارتياع :

ـ ليس هُنا .. أقسم لك إنه ليسَ هُنا .

جاء الجَوابُ ليفجِّر مزيدًا من الغضب فى أعماق (حازم) ،

الذى دفع ذبابة سيفه أكثر ، فى عنقِ غريمه ، حتى أدماهُ ، فصرخ الرجلُ :

ـ أقسمُ لك إننى أقولُ الحقَّ .

صاح به (حازم) فى حدَّة :

ـ أين هو إذنْ .. أجبْ وإلا أجهزت عليكم جميعًا .

شحبَ وجه الرجل ، وارتعَدَ زملاؤه الثلاثة المصابون .. فهتف أحدهم :

ـ سأخبرك .. سأخبرك بكل ما تُريدُ .

التفتَ إليه (حازم) ، قائلاً فى صرامة :

ـ هيَّا .. أخبرنى أين هو ؟

ازدرد الرجُل لُعابه الجاف فى صعوبَة ، وقال :

ـ لقد فكَّرنا ـ فى البداية ـ فى إذابته ، كما نفعلُ بالمسروقاتِ الأخرَى ، وبيعه إلى صائغٍ نعرفهُ .. فى المدينة الكبيرة خلف حدودكم ، ذات القبابِ الضخمة ، ولكنَّ الزعيم رأى أن هذا سينقصُ من قيمته كثيرًا ، فقرَّر أن يحمله بنفسه ، مع الأربعة الباقين منا ، إلى مدينة القباب ، ليبيعَه كما هو .. حتَّى يفيدَ بثمنه الضَّخم دفعةً واحدةً .

بدا التوتُّر على وجه (حازم) ..

إذن فزعيمُ المجرمين قرَّر عبورَ الحدود ، إلى مدينة القباب ، لبيع السيف ..

ولكن لا ..

لن يسمح له أبدًا ..

وفى صرامةٍ ، سأل الرجل :

ـ ومتى رحلَ الزعيمُ ورجاله ؟

أجابه الرجلُ فى استسلام مرير :

ـ فى الفجرِ .. وسيبلغونَ مدينةَ القباب مع غروب الشمس ..

التقى حاجبا (حازم) فى شدَّة ..

لم يعُدْ لديه ما يكفى من الوقت ..

لا بدَّ له من أن ينطلق الآن ..

وبأقصى سرعةٍ ممكنة ..

وأعاد (حازم) سيفه إلى غِمْده ، وهو يقول فى صرامة :

ـ كان يمكننى أن أقتلكم جميعًا بلا رحمةٍ ، جزاء ما فعلتم بى ، ولكن من حسن حظكم أننى لستُ قاتلاً مثلكم ..

ثم اتجه فى اعتداد إلى مدخل المغارة ، تاركًا الرجال الأربعة خلفه ، فى انهيار شديد ، غير مصدقين أنهم قد نجوا ، أما هو ، فغادر المغارة فى سرعة ، وعاد إلى حيثُ ترك جواده ، وربَّت على عنقه ، وقال وهو يشيرُ إلى جرابه الجلدى المنقوش :

ـ لقد استعدت سيفى يا صديقى ، وبقى أن أستعيد السيف الذهبىَّ .

وثبَ على صهوةِ الجوادِ فى رشاقةٍ ، وجذبَ عنانه ، مستطردًا :

ـ وهذا يحتَاجُ من كلينا إلى جُهْدٍ أكبر ، و ..

وفجأة ، وقبل أن يتمّ عبارته ، انقضّ عليه الحارسُ الضخم ، من فوقِ صخرةٍ قريبةٍ ، وأحاط وسطه بساعديه المفتولين ، وهو يقول فى غضب جنونى :

ـ لن تفلت بهذه البساطة .

سقط (حازم) من فوق جوادِه ، وسقطَ فوقه الحارِس الضّخم ، وشعر (حازم) بثقله ، وهو يجثم على أنفاسه ، ويكبّل ساعديه ، ورآه يعتدل ويلتقط حجرًا ضخمًا ، وهو يصرخ :

ـ إنك لن تغادرَ هذا المكَان حيًّا.

وبكل ما يملك من قوةٍ هوى بالحجر على رأس (حازم) ..

وبلا رحمة ..

★ ★ ★

تصوُّر (حازم) فى موقفه العصيب هذا ، أن نهايته آتية لاريب ..

كان الحارسَ الضخم يجثم على صدره .. ويقيد حركته .. وملامحه تبدو أشبه بملامحِ ذئب مفترس .. أضناه الجوعُ والعطش ، قبل أن يجدَ فى النّهايَة فريسة سهلةً .. سيهلك جوعًا ، لو لم يمزّقها بمخاليه إربًا ، ويلتهمها التهامًا ..

وكان الحجرُ الضخم يرتفع إلى أعلى ، بين يدى الحارس ،

ويستعد ليهوى بكل ثقله على رأس (حازم) بلا رحمة أو هوادة .. و ..

وفجأة انقلبتِ الأمور كلها رأسًا على عقب ..

انقلبت بصهيلٍ قويّ ، ردّدت الجبالُ صداه ، عندما اندفع الجوادُ لنصرة فارسه ، ورفع قائميه الأماميين ، ليهبط بحافريهما القويين على ظهر الحارس الضخم ..

وجاءت الضربَة عنيفة قويّة ، دفعت جسد الحارِس إلى الأمام ، وهُو يُمسك الحجرَ الضّخم فوق رأسه ، فاختلّ توازُنه ، وأفلتت أصابعه الحجر ، فسقط ..

سقط على رأس الحارس نفسه ، وليسَ على رأس (حازم) ..

وفى لحظة ، وجَدَ (حازم) الحارسَ ملقى إلى جواره ، فاقِد الوعى ، والدّماء تنزف من رأسِه ..

فهتف بجواده :

ـ أحسنت يا صَديقى .. إننى مدينٌ لك بحياتى .

مرّةً أخرَى خُيّل إليه أن الجوادَ يفهم جيّدًا ، عندما رآه يتراجعُ فى خَطَواتٍ رشيقةٍ ، وينفخ الهواء من بين أسنانِه فى قوةٍ ، ثمّ يهزُّ رأسه هزّةً قويّةً . تطايرت لها معرفته الناعمةُ ، فى مشهد أنيقٍ ، قبل أن تعودَ لتستقرّ على جانب عنقه ، ثم تقدّم من فارسِه ، وكأنّما يدعوه لامتطائه مرة ثانية ، ولكن (حازم) ربّت على عنقه ، قائلاً :

ـ لا يمكننا أن ننصرف بهذه السُرعة يا صديقى .

ثم انـتزع من سرجه قطعة طويلـة من القماش ، وانحنى يضمِّدُ بها جـرح رأس الحـارس الضَّخم ، بكل سرعةٍ ومهارةٍ وعناية ..

وكان مشهدًا كفيلاً بإثارة دهشـة الحـارس نفسـه ، لـو أنـه استعاد وعيه فى تلك اللحظة ..

فلن يتصوَّر أبدًا أن يهتمّ (حازم) بجرحِهِ إلـى هذا الحَدّ ، وهو الذى حاول قتله منذ لحظات ..

ولكن (حـازم) أجـاب السـؤال بنفسـه ، بعد أن انتهى من تضميد الجرح ، ونهضَ قائلاً لجَوَادِه :

ـ أعلم أنه حاول قتلى .. ولكنَّه بشـر .. ولَنْ نتْرُكـه مصابًـا هكذا .. أليس كذلك ؟

لـم يكن ينتظـر بـالطبع جوابًـا مـن جَـوَادِه ، لـذا فقـد أمسـك السرج بيسراه ، واستطرد فى حزم :

ـ والآن هيا بنا يا صديقى .

وبحَركةٍ بالغة المرونَة والرشاقة ، وثب على صهوة جواده ، وجذَبَ لجامـه ، فـانتفض الجَـواد ، وانتعش ، وأطلق صهيلـه القوى الرنَان ، ثم انطلق فى قلب الصحراء ، ينهب الأرض نهبًا ، ويثير خلفه عاصفة عاتية من الرمال ..

ولم تفارق عينا (حازم) رمال الطَّريق طوال الوقت ..

كان يتابعُ آثارَ الأقدام بكل عنايـة واهتمـام ، ليمكنـه معرفـة خط سير زعيم المُجرمين ورجاله ..

ولم يكن الأمرُ سهلاً ..

لقد سبقه الزعيم ورجالـه بعدَّة سـاعات ، وعليـه أن ينطلـق بأقصى سرعته وقوته ، لتعويض هذه الساعات الضائعة ..

ولم يتوان الجواد لحظةً واحِدَة بدوره ..

لقد أطاع تعليمـات فارسـه ، التـى تأتيـه عبر جذبـات اللجـام المختلفة ، ولكزات الكعبين فـى معدتـه ، وضغط السـاقين علـى بطْنِـه ، ومضـى فى طريقـه قويًـا ، عنيدًا ، على الرغم من طول

الطريق ، وقسوة الصّحراء ، والشّمس تلهبُ رأسه ورأس راكبه ، وهى تقطعُ رحلتها عبر السّماء ، نحو الغروب ..

ثم لاحت مدينة القباب ..

لاحت مع غروب الشمس ، وقد انعكسَ الضوءُ الأخير على قبابها الذهبية ، فالتمعتْ وتألّقت كعددٍ من الشموس الصغيرة ، التى تشارك الشّمس الأم رحلة الغروب ، خلف الأفق البعيد ..

وجذبَ (حازم) عنان جوَادِه ، على نحو جعَلَ الجوَاد يخفّف من سُرعته ، ويتوقّف فى النّهاية ، وهو يضرب الرّمال بحوافره فى عصبيّة ، وكأنّما يُعلن استعداده للمضى قدمًا وقطع المزيد من الطّريق ، لو أمره صاحبه بهذا ..

ولكن (حازم) كان غارقًا بكلّ حواسّه ، فى التطلّع إلى القباب الذهبية ..

ها هى ذى مدينة القباب ..

عاصمة البلاد المجاورَةِ لبلاده ..

بعد لحظات سيعبُر هذه التلالَ القريبة التى تمثل حدودَ بلاده ، وينتقل إلى البلاد المجاورَة ، حيثُ مدينة القباب الذهبية ..

سينتقل من عالمٍ إلى آخر ، يختلف عن عالمه تمامًا ..

صحيح أن الدولتين متجَاورتان ، ولكن طبيعة كل منهما تختلفُ عن الأخرى تمامًا ..

فى مدينة القباب لن يجد فرساتًا أو قبائل ..

لن يجد ذلك النمط العربى الأصيل ، الذى اعتاده فى موطنه ..

وهنا يكمنُ الخطرُ ..

امتلأت نفسه بالقلق والحذر والتحفُّز والتوتُّر ، ولكنه لم يتراجع ، أمام كل هذه المشاعر ، وإنما لكز جواده مرة أخرى ، وهزّ لجامه فى رفق ، فواصل الجوادُ طريقه ، وعبر مع صاحبه حدود البلاد ، واتجه نحو مدينة القباب ..

★ ★ ★

مع مغيب الشمس ، عَبر (حازم) وجواده أبواب المَدينة ، وامتزجا بذلك النّهر من زحام البشر داخلها ، حتى بلغ (حازم) أول صائغٍ بالمدينة ، فهبط عن جواده ، واتجه إليه ، قائلاً :

ـ السّلام عليكم يا رجُل .. هل أتاك اليوم من يعرض عليك شراء سيف مصنوع من الذهب الخالص ، ومقبضه مرصّع بالأحجار الكريمة ؟

ارتفع حاجبا الرجل ، وبدا مبهورًا من مجرّد الوصف ، وهو يهتف :

ـ لا يا ولدى .. لم أرَ تحفة كهذهِ التى تصفها ، لا اليوم ، ولا فى أى يوم مضى ، طوال أربعين عامًا ، قضيتها فى هذهِ المِهنَةِ ، وحتى لو رأيته لما أورثنى هذا سوى الحسرة والغيظِ .

سأله (حازم) فى حذر :

ـ الحسرة والغيظ ؟! ولماذا يا رجل ؟

تنهَّد الرجُل ، وقلَّب كفيه ، وهو يجيب :

ـ لأننى أعجزُ عن شراء تحفة كهذه .. إنها تحتاج إلى صائغ كبير ، عظيم الثراء ، يمتلك ثروة كافية ، لشراء مثل هذا السيف ، وله اتصالات مع علية القوم ، الذين يمكنهم الحصول عليه .

سأله (حازم) فى فراغ صبر :

ـ صائغ كبير مثل من ؟

أجابه الرجل فى سرعة :

ـ مثل (شيلوكى) .. صاحب ذلك القصر ، فى نهاية السوق .. إنه يتخذه مسكنًا ومتجرًا .. يمكنك اللحاق به الآن ، فعملُ المتجر يتوقفُ بعد الغروب .

وثبَ (حازم) على صهوةِ جواده ، وأسرع نحو قصر (شيلوكى) هذا ، ولم يكد يبلغه حتى أوقف جواده ، وقفز إلى الأرض ، وربَّت على عنق الجواد ، قائلاً :

ـ انتظرنى هنا يا صديقى .

لمح الجياد الثلاثة ، التى تتوقفُ أمام المتجر ، وميز منها جواد زعيم المجرمين ، فغمغم فى ارتياح :

ـ حمدًا للّه .. يبدو أننا وصلنا فى الوقتِ المناسب ..

ولكنه لم يكد يدلفُ إلى المتجر الفسيح ، حتى التقى حاجباه فى توتر ، وهو يدير عينيه فى المكان الخالى ، إلا من رجلين من صغار البائعين ..

لم يكن هناك أدنى أثر لزعيم المجرمين ، أو لرجل يوحى مظهره بأنه (شيلوكى) ، الصائغ الثرى ، فسأل (حازم) العاملين فى انفعال :

ـ أين السيد (شيلوكى) ؟

أجابه أحدهما فى خشونة :

ـ ليس هنا .

سأله (حازم) فى صرامة :

ـ أين ذهب ؟ إننى أريده لأمر عاجل ، وبالغ الأهمية والخطورة ، وأريد مُقابلته الآن .. فورًا .

تبادل الرجلان نظرة حذرة ، قبل أن يقول أحدهما :

ـ لا يمكنك مقابلته فورًا .. إنه يجرى صفقة مهمة .

أمسك (حازم) مقبض سيفه فى حزم وهو يقول :

ـ هذا بالضبط ما أريدُ مقابلته بشأنه ، فلو أن هذه الصفقة تختصُ بسيفٍ من الذهب ، فلن يمكنه إتمامُها : لأن هذا السيفَ مسروقٌ .

تبادل الرجلان نظرة متوترة هذه المرة ، وقال أحدهما فى غلظة :

ـ ليس هذا فى شأنك يا رجل .. ابتعدْ .. هيَّا ، قبل أن ننادى الجند ، ونطالبهم باعتقالك .

امتشق (حازم) سيفه فى حركة سريعة ، وهو يقول فى قوة وإصرار ، بديا واضحين فى لهجته وملامحه :

ـ قلت لكما سأقابله على الفور .

لم يكد ينطقها ، حتى لمحت عيناهُ ذلك الباب الخلفى للمتجر ، الذى تم صنعه بمهارةٍ كبيرة ، بحيث يبدو إطاره وكأنه جزء فى النقش العام للمتجر ، فاتجه إليه فى حزمٍ ، جعل الرجلين يعترضان طريقه ، ويهتفان :

ليس هذا من حقك أجابهما فى لهجة مخيفة :

ـ ابتعدا ، أو امزقكما إربًا .

ارتفع من خلفه فجأة صوت غليظ ، يقول :

ـ قالا : إنه ليس من حقك .

التفتَ فى سرعةٍ إلى مصدر الصوت ، والتقتْ عيناهُ بعينى أحدِ قطاع الطرق ، الذين هاجموه فى اليوم السابق وسرقوا منه السيفَ ، ولم يكد الرجل يراه ، حتى قال فى سخرية :

ـ إذن فهو أنتَ .. مرحى .. هل تفكر فى استعادةِ سيفك الذهبى يا فتى ؟

استدار إليه (حازم) بجسده كله ، وهو يقولُ فى صرامة :

ـ بل أنا مصرّ على هذا .

وبدون كلمة إضافية أخرى ، وعلى نحو مباغتٍ تمامًا ، انقضَّ كل منهما على الآخر ، والتقى سيفاهما بصليلٍ مزعج ، وراحا يتقارعان فى قوةٍ وعنف وصلابة ، فهتف أحد عاملى المتجر بزميله :

ـ الجند .. أسرعْ فى طلب الجندِ .

اندفع العاملُ خارج المتجر ، تلبية لهاتفِ زميله ، فى نفسِ اللحظة التى مال فيها (حازم) ، جانبًا متفاديًا ضربة من سيف خصمهِ ، كشفت صدر هذا الأخير ، فوثب (حازم) فى سرعة وحنكة ، وطعنه ..

ولم يضعْ لحظة واحدة بعدَها ..

كان يعلمُ أن العامل سيستدعى الجند فى أقرب وقت ، وأن صليل السيوف قد بلغ حجرة (شيلوكى) الخلفية حتمًا ، لذا فقد أزاحَ العامل الثانى ، فورَ سقوط خصمه ، ثم انقض على الباب الخلفى ، وركله بكلّ ما يمتلكُ من قوةٍ ، فحطّم رتاجه ، واندفع داخل الحجرة ..

وهبَّ الرجال الأربعة داخل الحجرة دفعةً واحدةً ، مع ذلك الاقتحام المفاجئ ..

كان زعيم المجرمين مع رجلين من رجاله ، يتأهبان لصد الهجوم ، فى حين كان (شيلوكى) بجسده الضئيل ، ورأسه الأصلع ، ولحيته الحادة القصيرة ، يحمل السيف الذهبىَّ ، ويحاولُ الفرارَ إلى داخل قصره ، عبر باب جانبى آخر ..

وهتف الزعيمَ :

ـ إذن فقد أتيت خلفنا ..

ولكن (حازم) لم يناقشه ..

كان قد تعلّم الدرس جيدًا ، وأدرك أنه ، فى مثل هذه

الصراعات ، يكون لكلّ ثانية ثمنها ، ومفعولها الحاسم ، فى تحقيق النصر ، أو جلب الهزيمة ، لذا فقد هاجمَ الرجالَ الثلاثة بلا توقف أو تردد ، وطعن أحدهم بسرعة مدهشة . ثم أصابَ يد الثانى بضربة مدروسة ، أطاحت بسيفه ، ومزّقت كفه ، ولكن الزعيم انقضّ عليه بدوره ، هاتفًا :

ـ لن تربح ، مهما فعلت هذه المرة .

أما (شيلوكى) ، فقد عبر الباب الجانبى إلى قصره ، وراح يصرخ :

ـ النجدة .. لص .. إلىّ يا رجال .

تلقّى (حازم) ضربة الزعيم على نصل سيفه ، ثم أزاحه جانبًا ، ودفع الزعيمَ نفسه بضربة قوية من قدمه ، وهو يقول :

ـ لم يحنِ الوقت لقتالك بعدُ .. السيف أولاً .

سقط الزعيم على ظهره ، وهو يهتف فى غضب :

ـ انتظر .

كان يأملُ فى تعطيل (حازم) قليلاً من خلال مبارزة عنيفة طويلة ، حتى يصل الجند ، أو يهبّ رجال (شيلوكى) لنجدته ، ولكن (حازم) كان يدركُ هذا الغرض ، لذا فقد فوّت الفرصة على الزعيم ، إذ وثب عبر الباب الجانبى ، ثم أغلقه خلفه فى إحكام ، وهتاف (شيلوكى) ما يزال يتردّدُ فى المكان :

ـ النجدة يا رجال .. أوقفوا اللصّ ..

كان البابُ يقودُ إلى القصر ، حيث يعدو (شيلوكى) ، فانطلق (حازم) خلفه ، انطلق الزعيم داخل الحجرة الخلفية للمتجر ، يضرب بابها الجانبى بقبضتيه فى غضب وغيظ ، وهو يصرخ :

ـ عد أيها الجبانُ .. عد أيها الرعديدُ .

تجاهل (حازم) هذه المحاولة تمامًا وأضاع على الزعيم فرصة استفزازه للمرةِ الثانية ، وهو يعدو خلف (شيلوكى) ، الذى تعثّر فى عدوه ، وسقط على وجهه ، وهو يصرخ :

ـ أنقذونى من اللصّ .. النجدة .

بلغه (حازم) فى هذه اللحظة ، ووضع ذبابة سيفه على رقبته ، وهو يقول :

ـ لستُ أنا اللصّ يا رجل .. اللص هو من يشترى سيفًا مسروقًا ، وهو يعلمُ هذا .

استدارَ إليه (شيلوكى) ، وهو يرتعد كعصفور مبتلّ ، وهتف :

ـ لست أريدُ السيفَ .. أبق على حياتى وخذه .. خذ السيف ، أو حتى خذ كل ثروتى ، ولكن اتركنى حيًا .

اختطف (حازم) السيف الذهبى من يده ، وهو يقول :

ـ احتفظْ بثروتك أيها الصائغُ ، يكفينى سيفُنا الذهبىُ .. إنه حقنا .

بلغه (حازم) فى هذه اللحظة ، ووضع ذبابة سيفه على رقبته ، وهو يقول : - لست أنا اللصّ ..

لم يكد يمسك السيف فى يده ، حتى ظَهَرَ رجال (شـيلوكى) من كلّ صوب ، وكل منهم يحملُ سيفه ، فى نفس اللحظـة التى انهارَ فيها البابُ الجانبى ، تحت ضربات زعيم اللصوص ، الذى ظهر منه ، وخلفه عددٌ من الجند ، وأشـار إلى (حـازم) وهو يهتفُ فى غضب :

ـ ها هو ذا اللص .. أمسكوه ..

وأطبق الجميع على (حازم) ..

ومن كل صوب ..

★ ★ ★

كان الموقفُ بالغ الدقة والخطورة ، ويدعو إلى السخرية ، فى الوقت ذاته ، فقد كان (حازم) هو صاحب السيف الحقيقى ، والجميع فيما عدا هذا مجردُ لصوص ، يحاولون سرقة سيفه وبيعَهُ ، ولكن الأمور كلها تبدو مقلوبة تمامًا ؛ إذ إن رجال (شيلوكى) والجنود ينظرون إليه باعتبارِ أنه هو اللص ، وأن الجميع فيما عداه شرفاءُ .

وكان من المستحيل أن يقاتل (حازم) كلَّ هذا العدد دفعة واحدة ، لذا فقد دارت عيناهُ فيما حوله بسرعة ، بحثًا عن منفذٍ أو مهربٍ ، من هذه الأزمة ..

وتوقفت عيناهُ عند باب جانبىٍّ نصف مفتوح ، يقود إلى أحد أبـراج القصـر ، وقبـل أن يدرس عقله الموقف ، كانت قدماه

تسرعان نحو الباب ، والجميع يعدون خلفه ، و (شيلوكى) يصرخ :

أمسكوه .. إنه لصٌ .. لقد سرقَ سيفى الذهبىَّ .

أما زعيم المجرمين ، فصرخ :

اقتلوه .. اقتلوا اللص .

ولكن (حازم) بلغَ الباب ، قبل أن يبلغه أحدهم ، فقفز عبره ، ثم دفعه بكلّ قوته ، وأغلقه فى وجوهِ مهاجميه ، وألقى رتاجه الخشبىَّ الضخمَ فى سرعة وعنفٍ ، وتراجع لاهثًا ، والضربات تهوى على الباب فى قوة وغضب ..

وألقى (حازم) نظرة على ذلك المكان ، الذى قادته قدماه إليه ..

كان أشبه بمخزن قديم ، أو حجرة مهملات ، له جدران هائلة الارتفاع ، تصل إلى عشرة أمتار ، وتنتهى بنوافذ مربعة كبيرة ، يتسلّل منها ضوء القمر ، ليمنحه القدرة على الرؤية بصعوبة ، أما أرضية المكان فقد تكدّست فيها عدة أشياء .. عصى خشبية ، وحبلٌ طويل ، وبعض أعواد الخيزران ، وبقايا سرج قديم ..

ومن الخارج سمعَ (حازم) زعيم المجرمين يهتف بالجنود ، وبرجال (شيلوكى) :

ـ احضروا بعض الفئوس .. سنهدم هذا الباب الخشبى ، أو نشعل فيه النيران .. المهم أن نظفر باللص .

صاح (شيلوكى) فى عصبية :

ـ لا .. لا تشعلوا النيران .. ستتلفون السيف الذهبى .

ثم صاحَ صوت من بعيد :

ـ لقد أحضرت الفئوس .

وبعدها بلحظاتٍ بدأت الفئوس تهوى على الباب ، وتسعى لتحطيمه ..

ولم يكن هناك مخرجٌ طبيعى من هذا الموقف الحرج ، ولكن عقل (حازم) راح يعملُ بكل سرعته وقوته كالمعتاد ، فى مثل هذه الظروف ..

وبسرعة انحنى (حازم) يلتقط عودًا قويًّا من أعواد الخيزران ، ثم انتزع قطعة طويلة من الجلدِ ، من السرج القديم ، وأخرج خنجره ، وراح يصنعُ فجوتين صغيرتين ، فى طرفى عود الخيزران ، ثبت فيهما قطعة الجلد الطويلة الرفيعة ، وجذبها فى قوة . لينثنى عود الخيزران ، ويصبح قوسًا قويًّا ، وبعدها التقط عددًا آخر ، ثبت فى نهايته بعض قطع الجلد ، ليصبح أشبه بسهم طويل ، والتقط طرَف الحبل ، وربطه جيدًا فى نهاية السهم الخيزران ، ثم وضع السهم فى وتر القوسِ ، وصوَّبه إلى النوافذ العلوية ، قائلاً :

ـ على بركة اللّه (سبحانه وتعالى) ..

جذب وتر القوس بكل قوته ، وصوَّب سهمه فى إحكام

وإتقانٍ إلى النافذةِ البعيدة ، على الرغم من شظايا الخشب ، التى بدأت تتطايرُ داخل المكان الضيق ، بعد أن عبرتْ بعضُ الفئوسِ البابِ ، وبدأت تصنعُ فيه فجواتٍ صغيرة ، تتسع فى سرعة ..

وأطلق (حازم) سهمه ، الذى جذب إليه الحبال ، وهو يندفع نحو النافذة ، وعينا (حازم) تتابعانه فى قلق وترقب ، مغمغمًا :

ـ ترى هل يتخذ المسارَ المنشود ؟

أجابه السهمُ على الفور ، عندما عبر فجوةً واسعة تعلو إطارَ النافذةَ تمامًا ، وهو يجذبُ الحبل الطويل خلفه ، فأسرع (حازم) يجذبُ الحبلَ ، ليوقف اندفاع السهم ، وهو يهتف :

ـ حمدًا لله .

أوقفتِ الجذبةُ السهم بصورةٍ مباغتة ، فهوَى بفعل الجاذبية ، ولكن الحبلَ تعلّق بإطار النافذة العلوى ، فتأرجح السهمُ ، وعبر النافذةَ مرة أخرى إلى الداخل ، وهنا أفلت (حازم) الحبلَ ، هاتفًا :

ـ رائع .

كانت حركته معقدة بعض الشىء ، ولكنها أتت بالغرض منها تمامًا ، فقد تهاوى السهمُ مرةٍ أخرى داخل المخزن القديم ، وهو يجذبُ الحبل خلفه ، حتى بلغ قبضةَ (حازم) ، فى الوقت

الذى صنعت فيه الفئوس فجواتٍ أكبر ، وهتف زعيم اللصوص فى الخارج :

اضربوا بقوةٍ أكبر .. ستظفر به حتمًا بعد قليل .

ولكن (حازم) جذبَ طرفى الحبل ، عقدهما ببعضهما ، والحبلُ يلتفَ حول الإطار العلوى للنافذة ، ثم راح يتسلّق الجدار فى خفة وسرعة ، وقبل أن يبلغ النافذة بمترٍ واحدٍ ، انهار بابُ المخزن ، واندفع الرجال داخله وهتف (شيلوكى) فى ارتياع ، وهو يرفع عينيه عاليًا :

إنه ليس هنا .. إنه يهربُ بسيفى .. أوقفوه .

رفع الرجال أقواسهم إلى أعلى ، وأطلقوها نحو (حازم) ، الذى تسلّق الحبلَ بسرعةٍ كبيرة ، والسهام تتناثر من حوله ، ثم قفز عبر النافذة إلى سور القصر ، وخلفه زعيم اللصوص يصرخ :

أوقفوه .. لا تسمحوا له بالفرار .

ولكن (حازم) قال ساخرًا :

ـ فات الوقتُ يا رجل .

وأطلق من بين شفتيه صفيرًا طويلاً ، بلغ مسامع جواده ، فأطلق صهيلاً قويًا ، وانطلق إلى حيث صاحبه ، الذى وثب من فوق الأسوار هاتفًا :

ـ هيا يا صديقى .

هَبط على ظهر جواده مباشرة ، وبدقةٍ تدعو إلى الإعجاب ، ولم يكد يستقر فوقه ، حتى انطلق الجواد بكل سرعته وقوتـه ، و(شيلوكى) من خلفه يصرخُ :

ـ سيفى .. سيفى الذهبى .. أوقفوه .

ولكن الجوادَ اخترق سوق المدينة كعاصفة عاتية و(حازم) من فوقه يهتفُ :

ـ انطلق يا صديقى .. انطلق .. لقد استعدنا مالنا .

وبوثبـة رائعـة ، تجـاوز الجـواد أبـواب المدينـة وحرّاسـها ، وانطلق نحو التلال ..

ونحو الحدود ..

★ ★ ★

لم يتوقّف (حازم) وجواده عن العدو طيلـة الليل ، علـى الرغم مـن أن أحدًا لـم يتحرّك بالسرعة الكافيـة لمطاردتهمـا ، خـارج أسـوار مدينـة القبـاب ، أو أن أحـدًا لـم يجـرؤ علـى مطاردتهما عبر الحدود ..

المهم أن الواحة الخضراء قد بدتْ واضحـة ، مـع شروق شمس الصباح التالى ، وبلغها (حازم) بعد نصفِ السـاعة مـن الغروب ، حيث استقبله أهلها بترحاب شديد ، وعانقه (خالد) ، وهو يهتف فى سعادة وحماس .

ـ مرحـى يـا رجل .. كم نشتاقُ إليك .. أيـة ريـاح طيبـة أرسلتك إلينا ؟

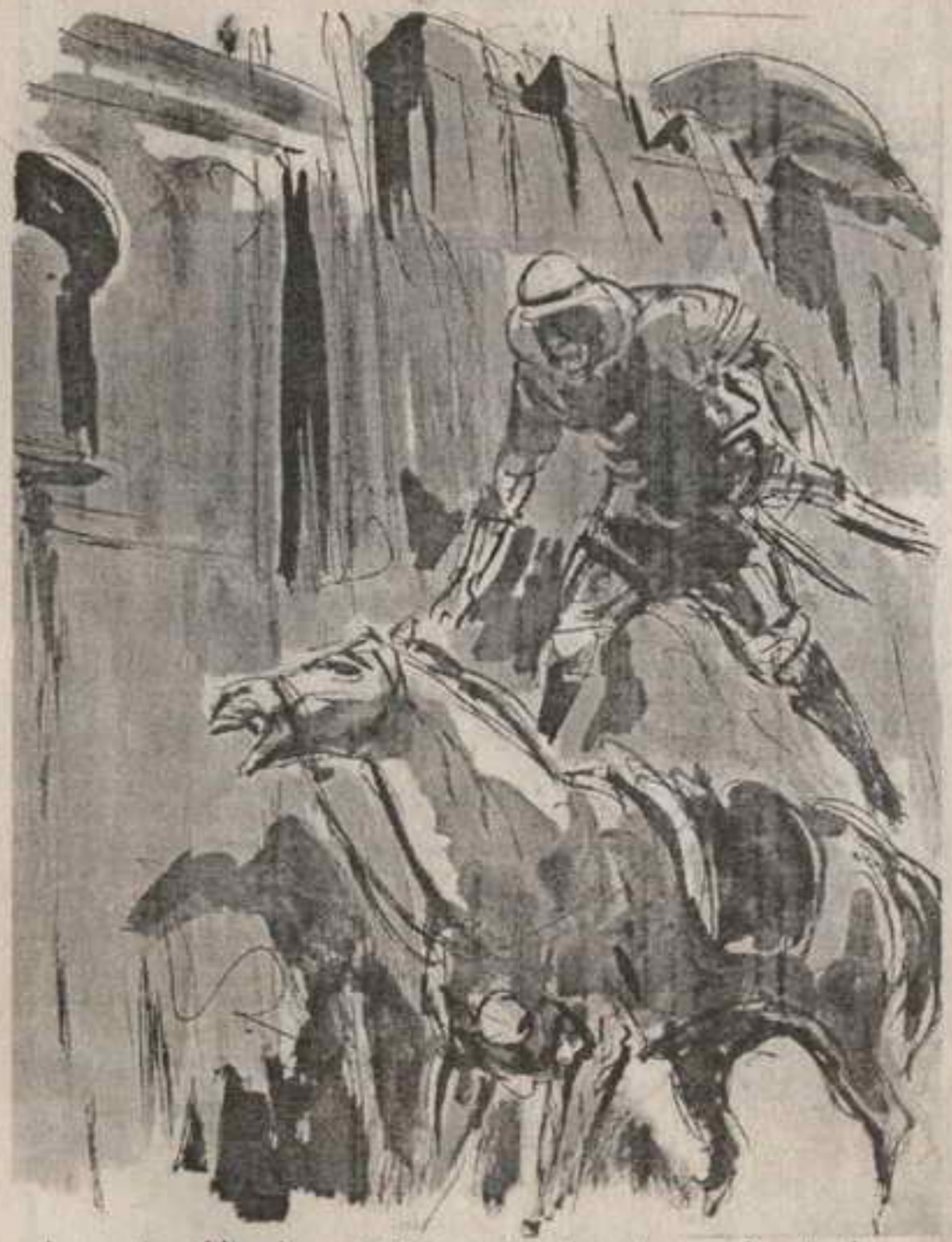

هبط على ظهر جواده مباشرة ، وبدقة تدعو إلى الإعجاب ، ولم يكد يستقر فوقه ، حتى انطلق الجواد بكل سرعته وقوته ..

ناوله (حازم) السيف الذهبىّ ، وهو يقول :

ـ أتيتُ حاملاً هذه الهدية إليك ، من شيخ قبيلتنا ، بمناسبة زواجك من ابنة أمير البلاد .

أخرج (خالد) السيف الذهبىّ من غمده ، فانطلقت شهقاتُ الإعجاب والانبهار من الجميع ، وقال شيخُ الواحة الخضراء مبتسمًا :

ـ هديةٌ عزيزةٌ من أخ عزيز يا ولدى ، ولكن ألم يكن من الخطر أن تعبر الصحراء وحدك إلينا ، وأنت تحملُ ثروة كهذه ؟

ابتسم (حازم) ، وقال :

ـ اللّه (سبحانه وتعالى) خير حافظٍ يا سيِّدى ، ومهما كانت المخاطر ، فنحن فرسانُ الصحراء ، ولن يهزمنا رعاعُها قط .

ثم غمز بعينه لجواده ، مستطردًا :

ـ أليس كذلك يا صديقى ؟

أطلق الجوادُ صهيله القوىّ ، فالتفتتْ إليه كلُّ العيون فى إعجاب ، وارتسمت على شفتى (حازم) ابتسامة كبيرة تعلن وصول السيف إلى صاحبه ، و ..

ونجاح المهمة .

★ ★ ★

(تمت بحمد الله)

المرأة مشكلة .... صنعها الرجل

النرجس

(دراسة)

العـــريس ..

من تتزوّج أوّلاً ؟!

سؤال يطرح نفسه على ذهن أية مجموعة من الصديقات ، مهما اختلفت بينتهن ، أو طبيعتهن ، أو حتى مستوياتهن الاجتماعية ..

وحتى لو أخفينه فى أعماقهن ، ورفضن البوح أو الاعتراف به ..

أو تظاهرن بالعكس ..

وظاهرة إخفاء الرغبة فى الزواج هذه ظاهرة حديثة ، لم تعرفها المجتمعات الشرقية ، حتى الماضى القريب ، ولا تعرفها المجتمعات الغربية على الإطلاق ، بل ولم تعرفها إلا منذ عدة قرون ..

فالفتاة الأوروبية والأمريكية لا تخفى أبدًا رغبتها فى الزواج والاستقرار ، وإنجاب البنين والبنات ، والارتباط بزوج محب ، يحيطها بكل الدفء والحنان ..

ومن المؤكد أن هذا هو حلم حياة كل فتاة ..

منذ الأزل ..

وقديمًا ، فى مجتمعاتنا الشرقية ، لم تكن الفتاة تصرّح بهذا

لأهلها وذويها ، ولكنها كانت تعلن عن رغبتها هذه فى وضوح ، وسط صديقاتها وزميلاتها ، لأنهن يشاركنها رغبتها وحلمها ..

ثم تغيّرت الظروف الاقتصادية ..

والاجتماعية ..

أصبح الزواج شاقًا عسيرًا ، والارتباط أمرًا يحتاج إلى كفاح مضن ..

تكاليف الحياة زادت ..

مغالاة الأهل فى المهور والمظاهر تضاعفت ..

أسعار الشقق ..

الأثاث ..

وحتى أدوات المطبخ ..

كل شىء صار باهظًا ، حتى إن فرص الزواج انخفضت ..

إلى أقل من الربع ..

ومع انخفاضها ، أدركت كل فتاة أنه صار من المحتمل أن تحمل يومًا ذلك اللقب البغيض ..

لقب (عانس) ..

ولأن كل فتاة ، فى مجتمعاتنا الشرقية ، لا تبغض فى حياتها كلها قدر هذا اللقب ، الذى صار يحوم فوق رءوسهن جميعًا ، دون اعتبار لجمال أو رقة ، أو مستوى مادى واجتماعى ، فقد نقلت الفتيات مشاعرهن ، كإجراء دفاعى وقائى ، إلى ناحية غير منطقية ..

وأعلنَ أنهن يرفضن الزواج ..

والمبرِّر ، فى هذه الحالة ، هو أن الزوج (أى زوج) شخص معقَّد نكدى ، يسعى للزواج من فتاة ما ، ليفرغ فيها كل عقده ومشكلاته النفسية والعصبية ، وأن هذا يحوِّل الزواج (أى زواج) إلى جحيم رهيب ، تصبح العنوسة إلى جواره هى جنة الخالق (عزَّ وجلَّ) فى أرضه ..

والبعض يصدِّق هذه المقولة ..

ويثور لأن الفتيات لا يرغبن فى الزواج ..

ويتصوَّر أن حديثهن هذا هو دعوة للفسق والفساد والفجور .. هذا لأنه لم ينتبه إلى أمر طريف للغاية ..

فكل من تردَّدن هذه المقولة ، توافقن بلا تحفُّظ ، على أول عريس مناسب يتقدَّم ..

بل وتبدون فى سعادة غامرة ..

وتقاتلن فى شراسة للفوز به ، فى بعض الأحيان ..

هى ليست مسألة مبدأ إذن ..

ليست رفضًا للزواج فى حد ذاته ..

والواقع أن رفض الفتاة (أو حتى الرجل) للزواج ، هو أمر غير طبيعى ، ويعنى أن صاحبه ليس شخصًا سويًّا ، بأى حال من الأحوال ..

فحتى حيوانات الأدغال ، تحتاج إلى رفيق يؤنس وحدتها ..

ومعظمها يكتفى برفيق واحد ، لا يتغيَّر طوال العمر ..

المشكلة إذن هى فى وجود الشخص المناسب ، الذى يصلح للعب دور العريس ..

والمشكلة الحقيقية ، عند بعض البنات ، هى أنهن يرسمن فى أذهانهن صورة مثالية أكثر مما ينبغى لعريس المستقبل ..

وخاصة لو كانت البنت جميلة ، أو ثرية ، أو تحمل شهادة عليا ..

ففى هذه الحالة يراودها شعور بأنها عروس (لقطة) ، وينبغى أن تحصل على عريس (سوبر) ، تثبت به لكل صاحباتها وصديقاتها أنها الأفضل ..

بلا منازع ..

لذا ، فهى ترفض شخصًا لأنه أصلع الرأس ، وآخر لعدم لباقته ، وثالثًا لأنه لم يعن باختيار رباط عنقه ، ورابعًا لأن أمه لم ترق لها ..

ومع مرور الوقت ، وتقدُّمها فى العمر ، ينخفض عدد المتقدمين ..

ولكن الصورة المثالية لا تتزحزح ..

فلا بد أن يكون العريس فى وسامة (حسين فهمى) ، وأناقة (كمال الشناوى) ، ولباقة (عمر الشريف) ، وثراء (بيل جيتس) ، و ... و ... و ...

ويتوالى الرفض ..
ويقل عدد المتقدمين أكثر ..
وأكثر ..
ثم تأتى مرحلة الصمت ..
الكل أدرك أن هذه الفتاة لا تريد زوجًا ..
إنها تبحث عن تحفة جميلة نادرة ، تصلح للتباهى بها ، أمام الصديقات والزميلات والجيران ..
وتوضع على حياتها لافتة (لم يتقدَّم أحد) ..
وفى الوقت ذاته ، تخطب زميلاتها الأقل جمالاً وثراءً ..
ويتزوَّجن .. وينجبن ..
وهنا تقفز البنت إلى الإجراء الدفاعى مباشرة ..
وتعلن أنها ترفض الزواج ..
وأنها لم تجد بعد الرجل الذى يستحقُّها ..
وفى الوقت ذاته ، فهى تحرص على أن تكون الأجمل والأحلى ، والأكثر أناقة وخفة ظل فى النادى ..
والعمل ..
وبين الصديقات ..
وبالذات الصديقات المخطوبات أو المتزوجات ..
وكإجراء وقائى ، وخشية على خطَّابهن وأزواجهن من النشل ، تبتعد عنها الصديقات ..

وتخلو حياتها رويدًا رويدًا ..
وتعبر حاجز الثلاثين المخيف ..
ثم فجأة ، تدعو الجميع لحفل خطبتها لعريسها الأصلع القصير ، ذى الابتسامة البلهاء ..
لم يعد كل هذا يهم ..
المهم أنه عريس ..
والسلام ..
وهذا بالطبع ليس النموذج السائد بين البنات ، اللاتى تأخَّرن فى الزواج ..
فهناك نوع آخر ، أكثر حنكة وذكاءً ..
نوع وافق على خطبة أوَّل عريس معقول ..
وارتدى دبلة الخطبة ..
وأثبت تفوّقه ..
ثم واصل البحث عن عريس مناسب ..
وهذا سيغضب الكثير من البنات ..
ولكنهن سيدركن ، فى أعماقهن على الأقل ، أن هذه النماذج موجودة ..
وواقعية ..
وهذا لا يعنى أنها تعبِّر عن الغالبية العظمى ..
بل ـ وهذا ما أثق به تمامًا ـ فهى تعبِّر عن الأقلية ..

الأكثر وضوحًا ..

فلو أنك قمت بإحصائية جادة ، لأدركت أن الغالبية العظمى ، والأعم ، من فتياتنا العربيات ، هن بنات محترمات ، بسيطات ، طيبات القلب ، سليمات الطوية ..

وقبل أن يعترض أحد الشبان على هذا القول ، دعنى أنقل إليكم سؤالاً ، طرحته علىَّ بنت مهذَّبة محجَّبة ، فى أثناء لقائى ببعض الأصدقاء ..

هل أخطأت بكونى محترمة وملتزمة ؟!

السؤال طرحته فى مرارة شديدة ، انجرح لها قلبى ، مع رقتها الزائدة ، وذلك الحزن الذى حفر نفسه فى ملامحها ، وسنوات عمرها التى لم تتجاوز بعد ربع القرن ..

وما يؤلمها ويعذبها هو أمر يندرج تحت نفس العنوان ، الذى يعبِّر عن بحثنا هذه المرة ..

العريس ..

فهى فتاة محجَّبة ، فرض عليها حجابها ، كما ربتها تقاليدها وعقيدتها ، على أنه من الخطأ أن تتبرَّج ، أو تتزيَّن بأكثر مما ينبغى ، أو ترتدى ثيابًا قصيرة أو ملفتة ..

ومن الخطأ أكثر أن تقيم أية علاقة مع الشباب ..

بخلاف زمالة الدراسة أو العمل ..

والبنت ، التى طرحت السؤال ، ليست متعنتة أو مغلقة ،

بل هى على العكس ، فتاة واسعة الاطلاع ، ذكية ، لمَّاحة ، لها نشاط اجتماعى مميَّز ، بل وعضو باتحاد الطلاَّب فى كليتها ..

ولكن كل هذا لم يلفت انتباه شاب واحد ..

أو رجل واحد ..

زميلاتها المتبرجات وحدهن حظين بكل الاهتمام ..

وجذبن كل الأنظار ..

وعندما حانت لحظة الاختيار والزواج ، تقدَّم لهن العشرات ، ممن يمتلكون السيارات الفاخرة ، والوظائف المحترمة ، والأسماء الرنَّانة ..

أما هى ومثيلاتها ، فقد سقطن من القائمة لبعض الوقت ..

وعندما تقدَّم شاب ما لخطبتهن ، كان زميل دراسة أو عمل ، من راكبى الحافلات العامة ، وأصحاب الوظائف البسيطة ، والأسماء المغمورة ..

زميل ينبغى أن تكافح معه بكل طاقتها ، ليمكنهما فى النهاية الحصول على عش صغير ، ودرَّاجة بالتقسيط المريح ، وأثاث يخفى فراغ العش ..

لو أنَّ هناك فراغًا كافيًا ..

وفى الوقت الذى تقضى فيه لياليها مع الورقة والقلم ، فى محاولة لضبط ميزانية البيت ، والإقلال من اللحوم والأسماك لأسباب صحية ..

واقتصادية ..

تكون فيها زميلاتها غير المحترمات ، من وجهة نظرها ، يعانين من الملل ، بعد أن غيَّرنَ سيارتهن للمرة العاشرة ، بأحدث طراز تم طرحه بالأسواق ، منذ أسبوع واحد ، وقضين وقتًا طويلاً مُرهقًا تحت شمس النادى ، أو فى محل الكوافير والباديكير ، و ... و ...

وكل هذا يصيبها بإحباط ما بعده إحباط ..

إحباط يجعلها تتساءل : أكان ينبغى أن تلقى حجابها واحترامها ووقارها منذ البداية ، وترتدى كل مثير وخليع ، حتى تحظى بزوج مناسب ، يحقّق طموحاتها فى الحياة ؟!

الإجابة التقليدية طبعًا هو أنه لا ينبغى أن تفعل هذا أبدًا ..

عليها أن تتمسك بقيمها ، وأخلاقياتها ، و ... و ...

ولكن المشكلة أن السائلة تعلم كل ذلك ..

ولكنها ، وعلى الرغم من هذا ، ما زالت تشعر بالإحباط ..

وما زالت تتساءل : لماذا لا يتهافت الشباب والرجال إلا على المتبرجات ؟!

لماذا لا يرون من البنات إلا الوجه الجميل ، والثوب الأنيق ، والسيقان العارية ، والصدور البارزة ؟!

لماذا لا يبحثون عن الأخلاقيات ، والقيم ، والاحترام ، والتدين ؟!

ماذا أصاب الدنيا ؟!

وماذا أصاب الرجل ؟!

لماذا أصبحت المظاهر هى الفيصل ، فى الحكم على كلّ الأمور ؟!

حتى تلك الأمور شديدة الحيوية والأهمية ..

الأمور التى تحكم المستقبل ..

وأجيال المستقبل ..

والعجيب ، كل العجب ، هو أن الرجل ، الذى يتزوّج فتاة بهرته بحركات جريئة ولفتات أنيقة ، وثوب يكشف أكثر مما يخفى ، يمضى معظم حياته وهو لا يشعر بالثقة ، فى تلك التى اختارها شريكة لهذه الحياة ..

وفى معظم الأحوال ، نجده يضرب حولها حصارًا من القلق والشك والغيرة ..

هذا لأنه لم يتبع قول الرسول (صلى اللّه عليه وسلم) : « اختر ذات الدين تربت يداك » ..

لقد اختار ذات الجمال والدلال والميوعة والثياب اللافتة ..

وترك خلفه أخرى ، تشعر بالغيظ والغضب والإحباط ، ثم لاتلبث أن تلجأ إلى الخطة الدفاعية نفسها ..

وتعلن أنها ترفض الزواج ، ما دامت مقاييس الرجال فى الاختيار قد اختلّت إلى هذا الحدّ ..

وتدور الدائرة من جديد ..

وتنشأ مشكلة جديدة من مشاكل المرأة ..

التى صنعها الرجل .

★ ★ ★

(وإلى اللقاء مع الفصل القادم بإذن الله)

روايات مصرية للجيب

فاى

سلسلة جديدة

عملية الأستاذ

الجزء الثانى

د. نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

هذه القصة لم تحدث من قبل ..
أو ربما حدثت ..
أو أن بعضها حدث ، وبعضها لم يحدث ..
ضعها فى عقلك حسبما يتراءى لك ..
ولكن المهم أنها تحمل توقيع الوطن ..
توقيع (مصر) ..

د . نبيل فاروق

عمليـــة الأستـــاذ

ملخص ما سبق نشره

● كمحاولـة لمنـع الرئيس (السـادات) مـن إعـلان الإيقـاع بضابط مخابرات إسرائيلى ، فى خطابه إلـى الشعب المصرى ، قام الإسرائيليون بعملية انتحارية ، فى مطار (جى. إف. كيـه) فى (نيويورك) ، نجحوا خلالها فى اختطـاف رجـل المخـابرات المصـرى الفذّ (رفعت) ، وطلبـوا أن يسـتبدل بـه جاسوسـهم (إيليا) ، مع منع الإعلان عن سقوطه ، حتى لا يسىء هذا إلى صورتهم فى العالم أجمع ..

ولأن الأمور ليست بهذه البساطة ..

ولأنه ليس من السهل أن تستسلم المخابرات المصرية لأمر كهذا ، فقد تقرّر أن يخوض المصريون المعركة ..

وبمنتهى القوّة ..

والحزم ..

والعنف ..

وفى سبيل هذا ، أرسلت المخابرات المصرية فريقًـا محدودًا إلى (نيويورك) ..

فريقًا يتكوّن من اثنين فحسب ..

(نسيم) ... و(فاى) ..

كان على الأوّل أن يضع خطة القتال ، وفقًا لما يتوصّل إليه من معلومات جديدة ، على أرض المعركة ، فى حين يسعى الثانى لتنفيذها ، بكل ما يمتلك من قوة ومهارة ..

وانتبه الإسرائيليون إلى اللعبة ..

وقرّروا التفرقة بين المخطّط والمنفّذ ..

ولأنهم قد فقدوا كل أثر لـ (فاى) ، فقد ركّزوا جهودهم كلها على (نسيم) ..

وفى متجر بقالة ضخم ، حاصر الإسرائيليون (نسيم) ، الذى لم يجد أمامه سوى بلطة الطوارئ ..

وانتزع (نسيم) البلطة من موضعها ..

واقتحم الإسرائيليون الثلاثة المكان ..

وفى الخارج ، سمع الجميع دوى ثلاث رصاصات ..

ثمّ ساد الصمت ..

التام(*).

★ ★ ★

(*) لمزيد من التفاصيل ، راجع الجزء الأوّل ، فى الكتاب رقم (٢٧) من كوكتيل ٢٠٠٠ (الوريث وقصص أخرى) ..

٤ ـ المخطّط ..

نفث الرئيس (السادات) دخان غليونه الشهير ، وهو يحاول الاسترخاء فى ذلك المقعد الكبير فى مكتبه ، ويلقى نظرة على ساعته ، قائلاً :

ـ الثالثة والنصف صباحًا هنا يا (كمال) .. أى حوالى الثامنة والنصف مساءً فى (نيويورك) .. المفترض أن يكون رجالك هناك الآن .. ألم تبلغك أية أخبار عنهم بعد ؟!

أومأ مدير المخابرات المصرية برأسه ، مجيبًا :

ـ بلى يا سيادة الرئيس .. رجلانا فى (نيويورك) الآن ، ولقد بدءا مهمتهما على الفور .

سأله الرئيس (السادات) فى قلق :

ـ وماذا عن الإسرائيليين ؟!

مطّ مدير المخابرات شفتيه ، وزفر فى توتر ، مجيبًا :

ـ كالمعتاد يا سيادة الرئيس .. يتحركون فى عنف وشراسة إلى أقصى حد .

نفث الرئيس دخان غليونه مرة أخرى ، وقال :

ـ إنها ورقتهم الأخيرة يا (كمال) .

غمغم مدير المخابرات :

ـ ورقة خاسرة بإذن اللّه يا سيادة الرئيس .

أشار إليه الرئيس ، قائلاً :

ـ أهو مجرّد رأى متفائل يا (كمال) ؟!

أجابه مدير المخابرات فى سرعة :

ـ لقد أرسلنا أفضل رجالنا يا سيادة الرئيس ، ومن المؤكّد أنهم سيبذلون قصارى جهدهم للفوز ..... كالمعتاد .

أومأ الرئيس برأسه متفهّمًا ، وقال :

ـ فلندع اللّه (سبحانه وتعالى) ، أن تكلّل جهودهم هذه بالنجاح .

ثم انعقد حاجباه ، وهو يضيف :

ـ فسيسيئنى بشدّة أن يمضى خطابى الليلة ، دون الإشارة إلى ذلك الإسرائيلى .

صمت مدير المخابرات بضع لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ لست أظن رجالنا يسمحون بهذا يا سيادة الرئيس .

نفث الرئيس دخان غليونه ، وهو يغمغم :

ـ أتعشّم هذا يا (كمال) .. أتعشّم هذا .

نطقها فى هدوء عجيب ، أدهش مدير المخابرات نفسه .. هدوء يخفى عاصفة عاتية ، تنطلق فى أعماق الرئيس .. عاصفة بلا حدود .

★ ★ ★

من المؤكّد أن تلك المواجهة ، فى المخزن الخلفى لمتجر البقالة الكبير ، فى قلب (نيويورك) ، لم تكن أولى مواجهات (نسيم) مع الإسرائيليين ..

ولكنها كانت أكثرها دقة ..

فقد كان رجل المخابرات المصرى يقف وحيدًا ، حاملاً بلطة طوارىء ، فى مواجهة ثلاثة من رجال المخابرات الإسرائيلية ، انقضوا عليه من الأمام والخلف ، وكل منهم يحمل مسدسًا آليًّا قويًّا ..

وبحسبة بسيطة ، يمكننا أن ندرك أن النتائج لا يمكن أن تأتى لصالح (نسيم) ..

أبدًا ..

ولكن من قال : إن مثل هذه الأمور ، تخضع فى المعتاد ، لأية قواعد معروفة ؟!

لقد اقتحم الإسرائيليون الثلاثة ذلك المخزن ، ومسدساتهم متحفزة للانطلاق ، وهم واثقون تمامًا من الظفر ..

وما إن لمحوا (نسيم) ، حتى ضغطت سبّاباتهم أزندة مسدساتهم بلا تردُّد ..

وانطلقت رصاصاتهم تدوى فى المكان ..

ولكن ما من رصاصة منها أصابت هدفها ..

هذا لأن الهدف ، وبكل بساطة ، لم ينتظر الإصابة ..

لقد تحرك (نسيم) بأقصى سرعته ، وخبرته الطويلة ، فى مواجهة الخطر ، فانزلق أرضًا فى خفة ، وترك جسده ينخفض دفعة واحدة ، وهو يلقى البلطة التى يحملها ، بكل ما يملك من قوة ، نحو الإسرائيليين (مورو) و (درو) ..

وفى نفس اللحظة ، التى انغرست فيها البلطة فى صدر (مورو) ، وانتزعته من مكانه ، لتضرب به الجدار ، وهو يطلق صرخة ألم رهيبة ، كان (نسيم) يقفز إلى الأمام ، ويقبض على معصم (درو) ، ثم دار حول هذا الأخير فى خفة ، لا تتناسب قط مع سنوات عمره ، وذلك الشعر الأشيب ، الذى يغمر رأسه ، وجعل من خصمه درعًا لجسده ، ويده تترك معصمه ، وتندفع إلى الأمام ، لتقبض على يده ، وتضغط سبّابته فوق زناد مسدسه عنوة ، وهو يرفع فوهة ذلك المسدس نحو (فيليب) ..

وفوجئ (فيليب) بالرصاصات تنهمر عليه ، من مسدس زميله ، الذى قاوم فى عنف ، وهو يصرخ ، محاولاً التخلص من (نسيم) ، الذى شلّ حركته تمامًا :

ـ اتركنى أيها المصرى .. اتركنى .

ولكن أصابع (نسيم) بدت كالفولاذ ، وهى تسيطر عليه ، وتواصل إجباره على إطلاق النار نحو رفيقه ، و (نسيم) يدفعه إلى الأمام فى قوة ..

وقفز (فيليب) يحتمى بهرم من البضائع فى المخزن ، وهو يهتف :

ـ ذلك المصرى الـ ...

قبل أن يتمّ عبارته سمع صوت لطمة قوية ، أعقبها صوت ارتطام بالأرض ، فأدرك أن (نسيم) قد أفقد (درو) وعيه .. والأخطر من هذا ، أنه قد استولى على مسدسه ..

وهذا يعنى أن كفتى الميزان قد تساويتا الآن ..

رجل لرجل ..

وبكل مقت وغضب ، صاح (فيليب) :

ـ على الرغم من كل ما فعلته ، لن تنجو منى أبدًا أيها المصرى .

ارتفع صوت بوق سيارة شرطة أخرى قادمة ، فتضاعف توتر (فيليب) ، وهو يقبض على مسدسه فى قوة ، ويتحرك فى حذر ، خلف كومة البضائع ، هاتفًا :

ـ قلت لك : لن تنجو أبدًا أيها المصرى .

تضاعف توتره ، عندما لم يتلقَ جوابًا ، أو يسمع أية حركة من حوله ، فالتصق بصناديق البضائع أكثر وأكثر ، وراح يتحرك فى حذر عصبى ، محاولاً أن يستشفَ موقع (نسيم) ..

ثم تعالى وقع أقدام ، تعدو نحو المخزن ، فانعقد حاجباه فى شدة ، وألقى سبابًا ساخطًا ، ثم اندفع نحو الباب الخلفى للمخزن ، هاتفًا :

ـ فليكن أيها المصرى .. سنؤجّل القتال لجولة قادمة .

اقتحم شرطيان المخزن ، فى نفس اللحظة التى وثب فيها خارجه ، وانطلق يعدو بكل قوته ، فصرخ أحد الشرطيين :

ـ ها هو ذا .

وانطلق كلاهما خلف الإسرائيلى ، وأحدهما يصرخ :

ـ توقّف وإلا ..

استدار (فيليب) فى سرعة ، وأطلق رصاصات مسدسه ، ليطيح بأحد الشرطيين ، ثم وثب إلى الأمام ، محاولاً بلوغ سيارته ..

ولكن الشرطى الثانى صرخ :

ـ توقّف .

وضغطت سبّابته زناد مسدسه ، بكل قوته وعصبيته وتوتره ..

وانطلقت الرصاصات تخترق ظهر (فيليب) ، وتدفعه إلى الأمام فى عنف ، ليرتطم بسيارته فى قوة ، ثم يسقط أرضًا ..

وفى توتر شديد ، هتف الشرطى ، ومسدسه يرتجف فى يده :

ـ أنت أجبرتنى على هذا .. أنت الذى ..

نهض (فيليب) من سقطته ، والدماء تنزف من صدره فى غزارة ، وهتف بكل مقت الدنيا ، وهو يرفع مسدسه نحو الشرطى :

ـ أيها الـ ...

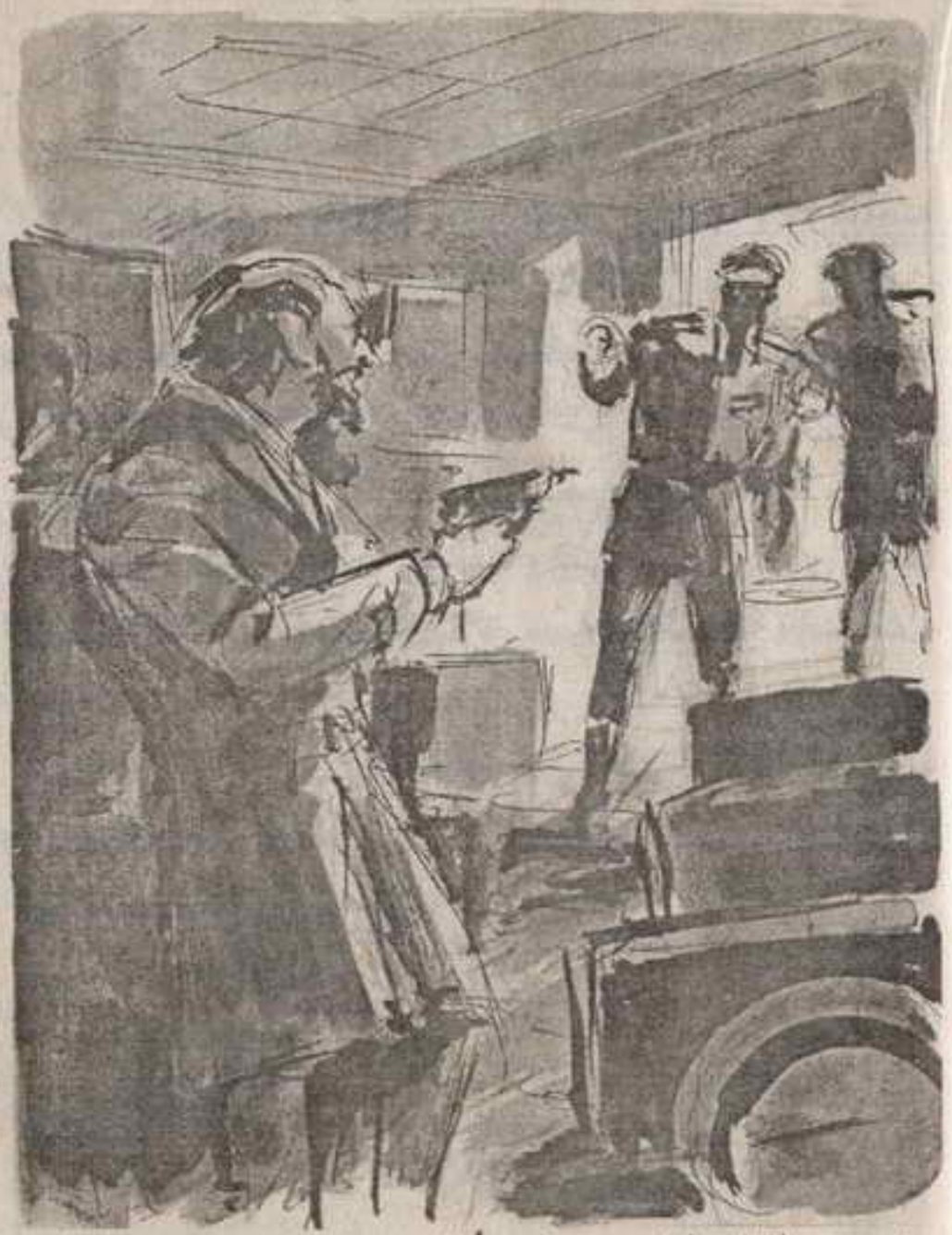

استدار (فيليب) فى سرعة ، وأطلق رصاصات مسدسه ، ليطيح بأحد الشرطيين ..

وبكل ذعره ، ضغط الشرطى زناد مسدسه مرة أخرى ..

وعادت رصاصاته تنطلق ..

وفى هذه المرة ، اخترقت كلها صدر (فيليب) ، واقتلعته من مكانه ، كما لو أنه قد تلقّى أقوى لكمة فى الكون ، وأطاحت به مترًا ونصف المتر إلى أعلى ، ليسقط على سقف سيارته ، وتتدفّق الدماء منه كالسيل ، لتغمرها على نحو مخيف ..

وكما يحدث فى كل بلاد الدنيا ، ازدحم المكان فجأة بالمارة الفضوليين ، الذين أحاطوا بالسيارة والشرطى ، فى نفس الوقت الذى تصاعدت فيه أصوات أبواق سيارات شرطة وإسعاف ، تتجه نحو المكان ..

ووسط كل هذا الهرج والمرج ، بدا (نسيم) شديد الهدوء ، وهو يغادر متجر البقالة ، ويشير لواحدة من سيارات الأجرة ، التى تساءل سائقها فى فضول :

ـ ماذا حدث ؟!

أجابه (نسيم) فى بساطة :

ـ حادثة انتحار على الأرجح .

ثم استرخى فى السيارة ، وهى تنطلق به نحو هدف جديد .. مجهول ..

★ ★ ★

« كارثة ! »

هتف (راف) بالعبارة فى عصبية شديدة ، وهو يضع سمّاعة الهاتف ، ويلتفت إلى (يازوسكى) ، مستطردًا :

ـ رجالنا كلهم سقطوا .. (فيليب) و (مورو) لقيا مصرعهما ، و (درو) فى قبضة الشرطة .

انعقد حاجبا (يازوسكى) ، وهو يسأله فى حدة :

ـ هل تخلصوا من (نسيم) ؟!

هزّ (راف) رأسه نفيًا فى شحوب ، فضرب (يازوسكى) سطح المنضدة أمامه بقبضته فى حدة ، وهو يهتف بسباب ساخط ، قبل أن ينهض فى عنف ، قائلاً :

ـ هؤلاء المصريون تجاوزوا حدودهم .

التفت إليه (دانى) ، قائلاً :

ـ لو أردت رأيى ، فالأفضل أن ننقل رجلهم ، من مكتب (بروكلين) إلى أى مكان آخر .

صاح (يازوسكى) فى حدة :

ـ خطأ .. أى تغيير الآن هو خطأ جسيم .. ربما كان هذا هو ما يسعون إليه منذ البداية .. أن نحاول تغيير مكان الأسير ، فنكشف لهم أمرنا .

قال (راف) فى دهشة مستنكرة :

ـ هل سنتركه هناك هكذا ، فى حراسة (دافيد) و(موشى) و(حام) ؟!

أجابه (يازوسكى) فى صرامة :

ـ نعم .. سنتركه هناك هكذا ، ولكننا سنضاعف وسائل الحراسة والمراقبة ، دون أن يشعر أحد .

سأله (دانى) :

ـ وماذا عن (نسيم) ، وذلك الآخر ؟!

التفت إليه (يازوسكى) ، وهو يسأله فى صرامة :

ـ هل أنهيتم صور ذلك الآخر ؟!

ناوله (دانى) مظروفًا كبيرًا ، وهو يقول فى تردُّد :

ـ ها هى ذى ، ولكن ...

قاطعه (يازوسكى) ، وهو يختطف المظروف بحركة حادة :

ـ ولكن ماذا ؟!

لم يحر (دانى) جوابًا ، وإنما تبادل نظرة شديدة التوتر مع (راف) ، فى نفس الوقت الذى راح فيه (يازوسكى) يراجع الصور ، التى تم التقاطها فى المطار ، فى سرعة ، وانعقد حاجباه مع احتقان وجهه ، وهو يلقى الصور فى وجهيهما ، هاتفًا فى غضب :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

ازدرد (دانى) لعابه ، وهو يقول فى توتر :

ـ الإضاءة لم تكن كافية ، والشاب كان يتخذ زوايا غير ...

قاطعه (يازوسكى) فى غضب هادر :

ـ أغبياء .. لقد أضعتم فرصة نادرة ، قد لا يمكننا تعويضها أبدًا .. إننا نقاتل الآن مجرَّد شبح ، ليست لدينا أية معلومات عنه ..

ثم عضَّ شفتيه فى غيظ ، مستطردًا :

ـ وهذا أسوأ ما يمكن أن يحدث ، فى عالمنا هذا .

غمغم (راف) ، محاولاً تهدئته :

ـ يمكننا أن ننصب فخًا عند مكتب (بروكلين) ، و ...

قاطعه (يازوسكى) فى حدة :

ـ لو أنه بلغ مكتب (بروكلين) ، فسيعنى هذا أن العملية قد فشلت تمامًا .

ارتبك (راف) ، وهو يغمغم :

ـ كان مجرَّد اقتراح .

أجابه (يازوسكى) فى صرامة :

ـ اقتراح غبى .

ثم لوَّح بذراعه فى حدة ، مستطردًا :

ـ لست أدرى كيف تم قبولكما فى (الموساد) ، فما ينبغى فعله هو عكس ما تفكران فيه تمامًا .. لا ينبغى أبدًا أن يصل (نسيم) ورفيقه إلى مكتب (بروكلين) .. بل علينا أن نصرف أنظارهما عنه بكل وسيلة ممكنة ، خلال الخمس عشرة ساعة القادمة ، حتى يضطر رئيسهما إلى إلقاء خطبته ، دون الإشارة إلى زميلنا (إيليا) .

قال (راف) فى حماس :

ـ وماذا لو هدّدنا بقتل زميلهم ، لو لـم يتوقّفوا عن السعى خلفنا ؟!

رمقه (يازوسكى) بنظرة ازدراء ، قائلاً :

ـ لن يصدّق أحدهم هذا بالطبع ، فهم محترفون مثلنا ، ويعلمون أننا لن نتخلّص منه إلا فى حالة اليأس التام ؛ لأننا لو قتلناه ، فما الذى سيمنع من كشف أمر سقوط ضابطنا عندئذ ؟!

بدا الحرج على وجه (راف) ، فى حين قال (دانى) :

ـ لدى فكرة لصرف أنظار المصريين .

التفت إليه (يازوسكى) بنظرة متسائلة ، فتابع فى حماس :

ـ سنحضر شخصًا يشبهه فى الهيئة والحجم ، ونتظاهر بأننا ننقله من مكان ما إلى آخر ، تحت حراسة مشدّدة ، وسيوحى إليهم هذا بأننا ننقل رجلهم ، فيسعون خلفنا ، ويقاتلون لتخليصه ، مما يمنحنا الفرصة للتعامل مع زميلهم الحقيقى ، بأية وسيلة نشاء .

انعقد حاجبا (يازوسكى) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ خطة طريفة ، ولكنها سخيفة للغاية يا هذا ، فخصمنا (نسيم) هذا ضابط مخابرات مخضرم ، ومخطّط من الطراز الأوّل ، وسيدرك من الوهلة الأولى أنها خدعة لجذب أنظارهم ، و ...

بتر عبارته بغتة ، وازداد انعقاد حاجبيه ، وعقله يدير الأمر مرات أخرى فى سرعة ، ثم لم يلبث أن رفع عينيه إلى الرجلين ، قائلاً بلهجة عجيبة :

ـ ولكن هذا لا يمنع من أنها فكرة جيّدة .

ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة شرسة ، وهو يضيف :

ـ مع قليل من التعديل .

نطق عبارته الأخيرة ، وراحت ابتسامته الشرسة تتسع ..

وتتسع ..

وتضاعفت شراستها ..

ألف مرة ..

★ ★ ★

٥ ـ الأســـــير ..

ألقى رجل (الموساد) (دافيد) نظرة على ساعته ، التى أشارت عقاربها إلى العاشرة مساءً بتوقيت (نيويورك) ، وهو يستمع إلى (يازوسكى) عبر الهاتف ، ويغمغم :

ـ عملية نقل ؟! فى هذه الساعة ؟!

ثم انعقد حاجباه ، وهو يستمع فى اهتمام شديد ، قبل أن يغمغم :

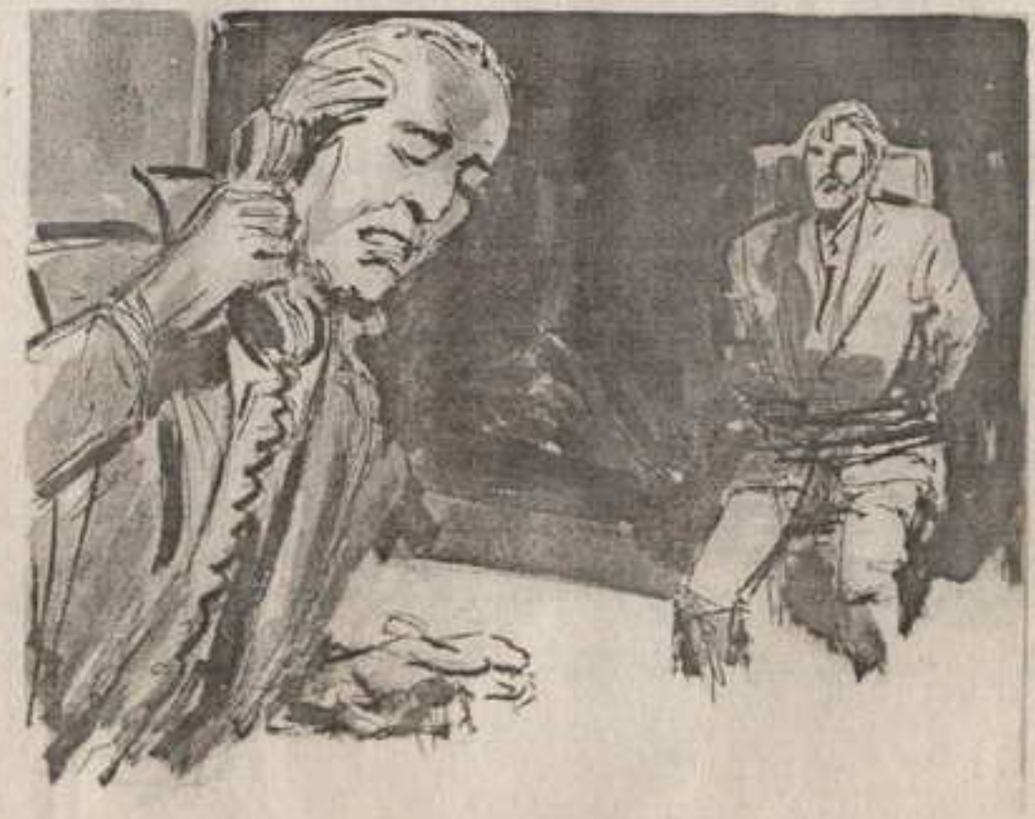

ـ آه فهمت .

وأنهى المحادثة ، ملتفتًا إلى (رفعت) ، المقيَّد إلى مقعد ضخم ، وقال بلهجة ساخرة :

ـ من الواضح أنك تثير اهتمام الجميع أيها المصرى .

أجابه (رفعت) فى برود :

ـ وهل يحنقك هذا ؟!

هزّ (دافيد) رأسه فى قوة ، وهو يقول :

ـ بل يشعرنى بأهمية ما فعلناه يا هذا .

ثم استلّ مسدسه من حزامه ، مستطردًا فى صرامة :

ـ وعلى أية حال ، لقد صدرت أوامر جديدة بشأنك .

تركّزت عينا (رفعت) على المسدس ، وهو يقول :

ـ إنها لا تتعلّق بالتخلص منى بالتأكيد ، فلن يمكنكم فعل هذا ، قبل أن يلقى الرئيس خطبته بالفعل .

ارتفع حاجبا (دافيد) ، وهو يهتف فى دهشة :

ـ إذن فقد فهمت اللعبة .

انعقد حاجبا زميله (موشى) ، وهو يشعل سيجارته ، قائلاً فى عصبية :

ـ هذا المصرى ذكى للغاية ، وسيسبّب لنا الكثير من المشكلات .

ابتسم زميلهما (حام) ، وهو يقول فى سخرية :

ـ أية مشكلات أيها المـأفون ؟! إنـه بين أيدينـا ، مقيَّدًا فى مقعده ، و ...

قبل أن يتمّ عبارته هتف (رفعت) بغتة ، وهو يطوّح قدمه إلى أعلى :

ـ لا تنطقها بكل هذه الثقة .

ضربت قدمه المسدس من يد (دافيد) ، فطار فى الهواء ، وهذا الأخير يصرخ ، منقضًا على (رفعت) فى غضب :

ـ أيها المصرى الـ ...

كان ينقض بمنتهى العنف والثقة ، باعتبار أن خصمه مقيَّد ، و ...

ولكن فجأة ، انقضّ عليه (رفعت) بدوره ..

قفز من مقعده بغتة ، واستقبل (دافيد) بلكمة كالقنبلة ، أطاحت بهذا الأخير ثلاثة أمتار إلى الخلف ، قبل أن يسقط أرضًا فى عنف ..

وفى حركة مدهشة ، وثب (رفعت) يلتقط مسدس (دافيد) ، الذى ركله منذ لحظة واحدة ، قبل أن يسقط أرضًا ، ثم استدار يواجه به (موشى) و(حام) ، الذين استوعبا المفاجأة بسرعة مدهشة ، تليق بالمحترفين ، وهبا يواجهانه بدوريهما ..

وانطلقت رصاصات (رفعت) ..

ورصاصاتهما ..

واخترقت رصاصات (رفعت) صدر (حام) ، وألقته أرضًا مضرجًا فى دمائه ، فى حين أصابت إحدى رصاصات (موشى) ذراع (رفعت) ، و ...

وانقضّ (دافيد) مرة أخرى ..

كان (رفعت) يدير فوهة مسدسه ، ليطلق النار على (موشى) ، عندما باغته (دافيد) من الخلف ، وهوى على رأسه بمنفضة سجائر ثقيلة ..

ودار رأس (رفعت) ، وهو يحاول الاستدارة ، لمواجهة خصمه الجديد ..

ولكن (موشى) انقضّ بدوره ، وكبَّل ذراعى (رفعت) من الخلف ، فهوى (دافيد) على رأسه بضربة أخرى ، صارخًا :

ـ هيّا .. افقد وعيك أيها المصرى .. هيّا .

كان أكثر ما يتمناه (رفعت) ، فى هذه اللحظة بالذات ، هو أن يتحدّى الإسرائيلى ، ويظلّ محتفظًا بوعيه ، و ...

ولكن للبشر قدراته ..

أى بشر ..

لذا فقد أظلمت الدنيا بشدّة أمام (رفعت) ..

وانتهى كل شىء دفعة واحدة ..

وفى حنق ، انحنى (موشى) يفحص (حام) ، قبل أن يهتف فى غضب ، وهو ينقضّ على (رفعت) الفاقد الوعى .

ـ لقد قتله .. هذا المصرى الحقير قتله .. أقسم أن ...

أمسك به (دافيد) فى شدّة ، وهو يقول فى صرامة عصبية :

ـ رويدك يا رجل .. الأوامر أن نحتفظ به حيًا ، بكل وسيلة ممكنة .

لوّح (موشى) بمسدسه ، وهو يهتف :

ـ حيًا ؟! ألم تر ما فعله هذا المصرى اللعين ؟! لقد تجاوز الخمسين من العمر ، وعلى الرغم من هذا ، فقد أمكنه التخلّص من قيوده ببراعة مدهشة ، وهاجمك كشاب فى العشرين ، ثم قتل (حام) برصاصات صائبة !! كيف يمكن أن نتركه حيًا ، بعد كل هذا .

أجابه (دافيد) ، فى صرامة أكبر :

ـ الأوامر هى الأوامر .

احتقن وجه (موشى) بضع لحظات ، فى غضب هادر ، ثم لم يلبث أن أعاد مسدسه إلى غمده ، وهو يغمغم :

ـ يا للسخافة !

تراجع (دافيد) بدوره ، وقال :

ـ يمكننا أن نقيّده بالسلاسل هذه المرة .

غمغم (موشى) فى سخط :

ـ أشكّ أن يفلح هذا .

هزّ (دافيد) رأسه ، وقال :

ـ اطمئن .. لقد صدرت أوامر جديدة بشأنه .

سأله (موشى) فى توتر :

ـ أية أوامر .

صمت (دافيد) لحظة ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ أوامر عجيبة .

ولم يزد حرفًا ..

واحدًا ..

★ ★ ★

« (فاى) .. هل تسمعنى ؟! »

تسللت العبارة إلى أذن الشاب ، عبر جهاز الاتصال الصغير ، المثبت على رأسه ، فأجاب فى سرعة :

ـ أسمعك جيّدًا يا سيّدى .. أأنت بخير ؟!

أجاب (نسيم) فى هدوء :

ـ كل شىء على ما يُرام .. لا تقلق بشأنى .. اهتمّ بمهمتك الأساسية فحسب .

غمغم الشاب :

ـ كما تأمر يا سيّدى .

سأله (نسيم) فى اهتمام :

ـ أين أنت الآن ؟!

أجابه الشاب ، وهو يعدّ بندقيته :

ـ على سطح المبنى المواجه لمكتب (الموساد) فى (بروكلين) .

صمت (نسيم) لحظة ، قبل أن يسأله ، فى لهجة تحمل لمحة حذر :

ـ ولماذا لم تتجه إلى ذلك المخزن ؟!

أجابه الشاب فى بساطة :

ـ كان أوضح مما ينبغى يا سيِّدى .

خُيِّل إليه أنه يرى ابتسامة (نسيم) ، عبر جهاز الاتصال ، وهو يقول فى ارتياح :

ـ أحسنت .

ثم سأله ، مستعيدًا اهتمامه :

ـ ماذا تفعل عندك ؟!

أجابه الشاب ، وهو يصوِّب بندقيته إلى الجدار المجاور لنافذة المكتب فى إحكام :

ـ لقد وصلت على الفور يا سيِّدى .

ثم ضغط زناد البندقية ، مضيفًا :

ـ وهأنذا أبدأ عملى .

نقل جهاز الاتصال صوت انطلاق البندقية المكتوم ، فقال (نسيم) فى حماس :

ـ هل أطلقت جهاز الاتصال ؟!

تابعت عينا الشاب جهاز الاتصال الدقيق ، الذى أطلقه من بندقية خاصة ، وهو ينغرس فى الجدار ، على بعد سنتيمترات من نافذة مكتب (الموساد) الرئيسية ، ثم أجاب فى اقتضاب :

ـ نعم يا سيِّدى .

سأله (نسيم) فى اهتمام شديد :

ـ ما الذى ينقله إليك جهاز الاتصال ؟!

أدار الشاب مؤشِّر جهاز صغير أمامه ، وهو يجيب :

ـ يبدو أنه هناك شجار يدور فى الداخل .. و ...

بتر عبارته بغتة ، فهتف (نسيم) :

ـ ماذا حدث ؟!

كان الشاب ينهض فى حزم ، وهو يجيب :

ـ هناك دوى رصاصات ، من مسدسات مزوَّدة بكواتم للصوت .

هتف (نسيم) :

ـ يا إلهى ! إنه هناك .. أسرع يا فتى .. تحرَّك فورًا .

أجابه (فاى) فى حزم ، وهو يتحرَّك فى خفة ، ليتسلَّق برجًا صغيرًا على السطح :

ـ لقد فعلت .

مضت لحظة من الصمت ، قال (نسيم) بعدها ، عبر جهاز الاتصال :

ـ على بركة الله .. الاتصال للضرورة فحسب .

قالها ، وأنهى الاتصال من ناحيته ، ليفسح للشاب مجال الحركة ، دون أية معوقات ..

وهذا ما كان يحتاج إليه (فاى) بالتحديد ..

وما يجيده بالتأكيد ..

ففى سرعة وخفة ، جذب من حزام حول وسطه حلقة ناقصة ، ثبتها فى سلك سميك ، يمتدّ من السطح الذى يقف فوقه ، إلى سطح مبنى مكتب (الموساد) ..

ثم وثب من السطح ..

وفى سرعة ، انزلق جسده ، من سطح إلى آخر ، على ارتفاع يزيد على الأربعين مترًا ، وسط ظلام ليل (نيويورك) ..

وما إن تجاوز جسده حافة سطح المبنى الآخر ، وبحنكة وخبرة وسرعة مظلى سابق ، أفلت (فاى) حزام صدره ، وترك جسده يثب نحو السطح ، ويهبط فوقه بمنتهى الرشاقة ..

ولثوان ، ظلّ جامدًا فى مكانه ، قدماه على السطح ، وركبتاه منثنيتان ، وأصابع يمناه تلمس السطح لمسًا ؛ ليتأكد من أن أحدًا لم يلحظ هبوطه ، أو ينتبه إليه ..

لم يكن من الحكمة أن يحيط الإسرائيليون مكتبهم ، الذى يحتفظون فيه بأسيرهم ، بحراسة تفوق المعتاد ، حتى لا يلفتوا إليه الأنظار ..

ولكن من المؤكّد أنهم يخفون شيئًا ما ..

شيئًا قد لا ينتبه إليه أى متسلّل عادى ..

لذا ، فقد بقى الشاب جامدًا لفترة طويلة ، كما لو أنه قد صار جزءًا من المكان ..

وعندما اطمأن إلى أن كل شىء هادئ وطبيعى ، عاد يتحرّك بخفة مدهشة ..

كان يرتدى زيًا أشبه بزى رجال الصاعقة ، من اللونين الأسود والرمادى ، وحذاءً بعنق طويل ، وقفازين رقيقين ، وحزامه يحمل كل ما يحتاج إليه من أسلحة ..

تقريبًا ..

وفى سرعة ، فحص السطح كله تقريبًا ، ثم انتقل إلى حافته ، وانتزع من حزامه لفة من الحبال ، ربط طرفها فى مدخنة قوية ، ثم ألقى الطرف الآخر ، ليتدلى إلى قرب النافذة الرئيسية لمكتب (الموساد) ..

وكإجراء أخير ، حوّل ذبذبة جهاز الاتصال ، المثبت على رأسه ، والأشبه بسماعات جهاز تسجيل حديث ، من تلك الأجهزة التى لم تكن متوافرة آنذاك ، إلى ذبذبة جهاز التنصّت ، المغروس إلى جوار النافذة ، وهو يستعد للهبوط بالحبل ، و ...

« هل تعنى أننا سننقله من هنا ؟! »

نقل إليه جهاز التنصّت عبارة (موشى) المستنكرة ، وأعقبها صوت (دافيد) ، وهو يقول فى صرامة :

وفى سرعة ، فحص السطح كله تقريبًا ، ثم انتقل إلى حافته ، وانتزع من حزامه لفة من الحبال ..

ـ ألديك حل آخر ؟!

مضت لحظة من الصمت ، قال (موشى) بعدها فى حدة :

ـ ومن سيهتم ؟!

ثم ساد صمت مقلق ، امتزج بأصوات غير مميَّزة ، فانعقد حاجبا الشاب ، وتجمَّد فى مكانه بضع لحظات ، قبل أن يتخذ قراره ، ويتعلَّق بالحبل فى قوة ..

ويثب ..

كان مدرَّبًا على نحو مدهش ، حتى إنه راح ينزلق بوساطة الحبل ، على جدار المبنى ، من هذا الارتفاع الشاهق ، فى براعة مدهشة ، وكأنما يسير الهوينَى ، فى شارع واسع ممهَّد ، وسط حدائق غنَّاء ..

وطوال الوقت ، لم يتلق جهاز الاتصال ، سوى أصوات تحركات خافتة ..

ثم ساد صمت تام ..

وانزلق الشاب بسرعة أكبر ..

وأكبر ..

كان ذلك الصمت التام يقلقه ..

بشدَّة .

وما إن بلغ النافذة ، وألقى نظرة حذرة عبرها ، حتى تضاعف قلقه هذا ..

ألف مرة ..

فقد كانت ردهة المكتب الرئيسية ، التى تطلّ عليها النافذة خالية ..

كانت آثار المعركة واضحة فيها ..

ولكنها خالية ..

تمامًا ..

وبسرعة ، نقل الشاب موجة الاتصال ، وهو يقول :

ـ من الخفاش الليلى .. إلى العش .. المكتب تم إخلاؤه بسرعة .. لا يوجد أحد .

أتاه صوت (نسيم) ، وهو يسأله :

ـ أأنت بالداخل ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ بل عند النافذة .

صمتت أجهزة الاتصال لحظة ، قبل أن يعود صوت (نسيم) صارمًا ، وهو يقول :

ـ العش يرغب فى تقرير دقيق ، أيها الخفاش الليلى .

أجاب الشاب فى حزم :

ـ سمعًا وطاعة يا سيِّدى .

قالها ، وثبت الحبل فى حزامه جيِّدًا ، ثم التقط من الحزام نفسه أداة رفيعة ، راح يعالج بها رتاج النافذة من الخارج فى

سرعة ، حتى أزاحه ، ورفع النافذة ، ووثب داخل الردهة الواسعة ، وهو يحلّ الحبل من حزامه ..

كان المكان هادئًا صامتًا بالفعل ، وكل شىء فيه يشفّ عن المعركة ، التى دارت منذ قليل ..

قيود (رفعت) الممزّقة ..

المقعد المقلوب ..

آثار الرصاصات والدماء على الأرض والجدران ..

وفى خفة ، التقط الشاب مسدسه من غمده ، وراح يتنقّل من حجرة إلى أخرى ، قبل أن يقول فى خفوت :

ـ من الخفاش الليلى إلى العش .. المكان خال بالفعل ، وهناك أثر معركة عنيفة دارت فيه .. قتيل واحد على الأقل .

حمل صوت (نسيم) كل توتر الدنيا ، وهو يردِّد :

ـ قتيل ؟!

أجابه الشاب :

ـ الدماء تغمر الأرض وبعض الجدران ، و ...

بتر عبارته بغتة ، فهتف به (نسيم) فى توتر :

ـ ماذا حدث ؟!

ولكن الشاب لم يجب ..

لقد التقطت أذناه صوتًا خافتًا ، جذب كل انتباهه ، وجعله يتجاهل سؤال رئيسه ، وهو يعود إلى الردهة فى حذر زائد ، و ...

وفجأة ، انبعث ذلك الصوت من خلفه ..

وبوضوح أكثر ..

وبكل سرعته ، استدار (فاى) إلى مصدر الصوت ..

ولمح رجلين ضخمين ، يندفعان من مدخل سرّى خفى نحوه ، وكل منهما يحمل مسدسًا آليًّا ، مزوّدًا بكاتم للصوت ..

وقبل حتى أن تكتمل استدارته ، ضغط الرجلان زنادى مسدسيهما ، و ...

وانطلقت الرصاصات .

★ ★ ★

٦ ـ خدعة جهنمية ..

سرت موجة عنيفة من التوتر ، فى كيان (نسيم) ، مع انقطاع الاتصال المباغت ، فهبّ من مقعده ، داخل ذلك المنزل الآمن ، الذى يدير منه معركته ، وهتف فى عصبية :

ـ تُرى ماذا حدث ؟!

اعتدل (طارق) ، وهو يقول :

ـ أتظنه فخًا يا سيِّدى ؟!

لوّح (نسيم) بكفه ، مجيبًا :

ـ احتمال أضخم مما ينبغى .

وتحرّك فى المكان بعصبية أكبر ، متابعًا :

ـ لقد درّبت ذلك الفتى بنفسى ، بعد ما تسلّمته من أستاذه الأوّل (رفعت) ، وأدرك جيّدًا أن باستطاعته مواجهة أية مفاجأة ، واستيعابها بسرعة ، والتعامل مع أقوى الرجال ، ولكن ..

قال (طارق) فى حيرة :

ـ ولكن ماذا يا سيِّدى ؟ مع وصفك هذا ، لا يوجد لكن .

لوّح (نسيم) بسبّابته ، قائلاً :

ـ الإسرائيليون ليسوا أغبياء .. إنهم يعلمون أننا لسنا هنا فى رحلة سياحية ، وأننا نسعى حتمًا لاستعادة رجلنا ، بأفضل ما لدينا ومن لدينا ، وسيبذلون قصارى جهدهم للقضاء على الشاب ، كما حاولوا هذا معى .

قال (طارق) :

ـ ولكنهم لا يعرفونه .

أجابه (نسيم) فى حزم :

ـ لو صح ما أخشاه ، فهم يعرفونه الآن .

ثم أشار إليه ، مستطردًا فى صرامة :

ـ ولكن لدينا مراقبين آخرين ، حول كل مكاتب (الموساد) ، وأحدهم يراقب مكتب (بروكلين) .. أجر اتصالك به على الفور ، ليبلغنا ما يراه .

هبَّ (طارق) إلى الهاتف على الفور ، وراح يجرى الاتصال ، و(نسيم) يواصل الدوران فى المكان ، مغمغمًا لنفسه :

ـ اهدأ يا (نسيم) .. اهدأ .. لا تقع فيما تنصح الآخرين بتفاديه .. لا تفقد أعصابك ، وقدرتك على التفكير السليم ، فى أحلك المواقف .

والعجيب أن كلماته هذه كان لها تأثير السحر فى نفسه ، وكأنما اعتادت أن تستجيب له بكل خضوع ، فما إن انتهى

منها ، حتى سرى الهدوء فى عروقه ، وانبعثت من عقله إشارة خاصة ، تعلن أنه مستعد للعمل بكل طاقته ، فى نفس اللحظة التى هتف فيها (طارق) ، وهو يناوله سمّاعة الهاتف :

ـ مراقب (بروكلين) .

التقط (نسيم) الهاتف ، وسأل المراقب على الفور :

ـ ماذا يحدث عندك ؟!

أجابه الرجل فى توتر واضح :

ـ الكثير يا سيِّدى .. كنت سأجرى اتصالى بكم على الفور ، لو تأخرتم ثوانى معدودة .

سأله (نسيم) ، والتوتر يعاوده :

ـ ماذا يفعلون ؟!

أجاب الرجل :

ـ لقد وصلت سيارة كبيرة ، وهناك استعدادات واضحة ، توحى بأنهم يستعدون للتحرُّك من هنا .

انعقد حاجبا (نسيم) فى شدة ، وهو يغمغم :

ـ استعدادات واضحة ؟!

ثم أضاف فى حزم :

راقب الموقف جيِّدًا يا رجل ، وأبلغنى أية تطورات أوَّلاً فأوَّلاً .

قالها ، وأنهى المحادثة ، وقد حملت كل خلية من خلاياه أمارات التفكير العميق ..

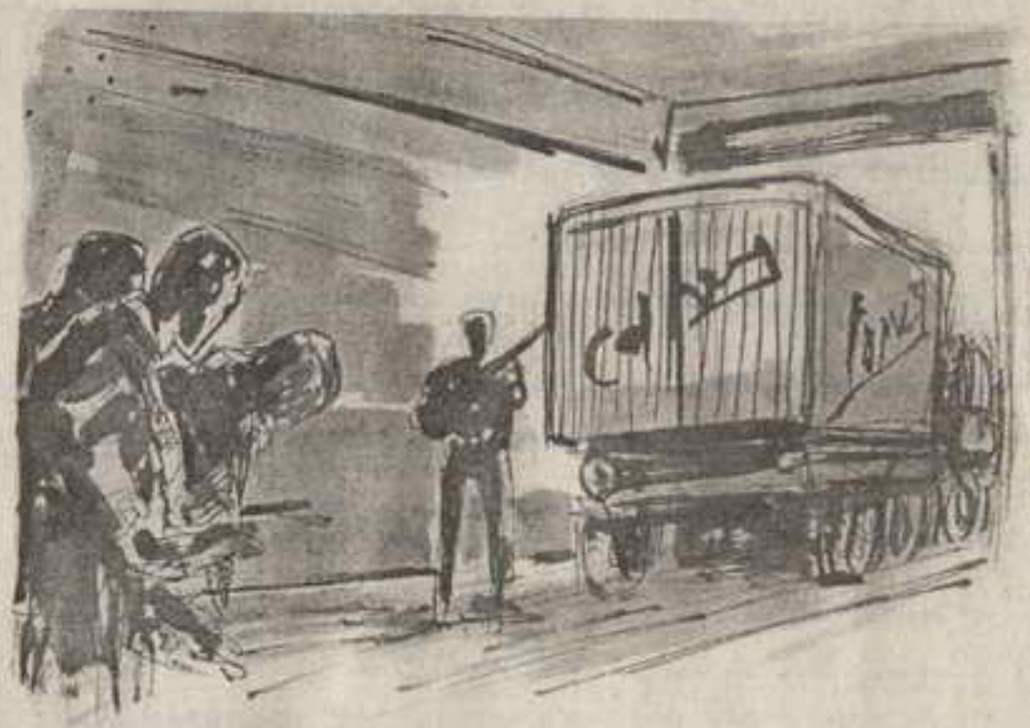

تُرى ما الذى يفعله الإسرائيليون بالضبط ؟!
أية استعدادات تلك التى يتخذونها ؟!
ولماذا ؟!
كل الدلالات توحى بأن (رفعت) فى هذا المكان بالفعل ..
أو أنه كان كذلك ..
ولكن هناك آثار قتال ..
واستعدادات ..
واضحة ..

ذلك الوضوح بالتحديد هو ما يقلقه ..
إنه يبدو كما لو أن الإسرائيليين يتعمدون جذب انتباههم ..
وأن (رفعت) ليس هناك ..
كل القواعد التى تعلّمها فى شبابه ، ويعلّمها لمن يتولّى تدريبهم من الشباب ، تؤكد هذا ..
أى رجل مخابرات بسيط يعلم هذا ..
ويدركه تمام الإدراك ..
حتى الإسرائيليون يعلمون هذا ..
ويعلمون أن المصريين يعلمونه أيضًا ..
فلماذا إضاعة الوقت ، فى مثل هذه السخافات ؟!
لماذا ؟!
التقى حاجباه أكثر وأكثر ، وعقله يعتصر هذا الموقف ، ويعيد دراسته أكثر ..
وأكثر ..
وأكثر .
ثم ارتفع رنين الهاتف ..
وبسرعة البرق ، التقط (نسيم) سمّاعته ، ووضعها على أذنه ، دون أن يقول شيئًا ، فسمع صوت مراقب (بروكلين) ، وهو يهتف فى انفعال :
- إنهم يتحركون الآن يا سيِّدى .. السيِّد (رفعت) معهم ..

إنهم يدفعونـه عبر الممر الطويل ، الذى تنتظر سيارتهم فى نهايته ، من الواضح أنه مصاب ، وهم يخفون وجهه ، ولكننـى أعرفه جيدًا .. لقد عملت معه لعام كامل .

ولم يعلّق (نسيم) على الهتاف ، على الرغم مما يحمله من معلومات مخيفة ..

(رفعت) بينهم ..

وبكل هذا الوضوح ..

كيف ؟!

ولمـاذا ؟!

من يضمن أنه ليس فخًا آخر ؟!

من يضمن أنها ليست لعبة ثانية ، للإيقاع به وبالشاب ، فى حالة فشل الفخ الأوّل ؟!

وهتف مراقب (بروكلين) ثانية :

ـ إنهم يتجهون بالسيّد (رفعت) إلـى السيّارة يـا سيّدى ..

ماذا سنفعل ؟!

ومرة أخرى ، لم يحر (نسيم) جوابًا ..

فالموقف كان يحتمل كل الاحتمالات ..

كلها بلا استثناء ..

ولا بد له من أن يحسم أمره ..

وأن يتخذ قراره ..

بمنتهى الدقة ..

والسرعة ..

هتف مراقب (بروكلين) ، فى انفعال بلا حدود :

ـ ماذا سنفعل يا سيّد (نسيم) ؟!

ودار الأمر كله فى رأسه مرة أخرى ..

لا يمكن أن يتصرّف الإسرائيليون بهذه السخافة ..

إلا إذا ..

قفز الاحتمال إلى رأسه بغتة ..

وبدا منطقيًا للغاية ..

إلى أقصى حد ..

وبسرعة ، وما إن استقرّ الأمر فـى ذهنـه ، حتـى ضغط زر جهاز اتصال الطوارئ ، وهو يصيح :

ـ من العش إلى الخفاش الليلى .. الغربان تنقل النسر إلـى وكر آخر .. المدخل الأمامى .. سيّارة سوداء كبيرة .. انطلق أيها الخفاش .. انطلق فورًا ..

كان يدرك جيّدًا أن (فاى) سيتلقّى هـذا النداء ، حتـى ولـو كان جهاز الاتصال التقليدى مغلقًا ..

ولكنه لا يدرى ما الحالة التى سيكون عليهـا ، عندمـا يتلقّى النداء ..

هل سيكون على قيد الحياة ؟!

أم ؟!

وكانت الاحتمالات هذه المرّة أيضًا مخيفة ..

للغاية !

★ ★ ★

لم يكد الشاب يشعر بتلك الحركة خلفه ، حتى استدار إلى مصدرها ، بأسرع ما يمكنه ..

ومع استدارته السريعة ، لمح رجلى (الموساد) ..

وانزلق ..

انزلقت قدماه على دماء (حام) ، التى تغرق الأرضية ..

وفقد توازنه ..

وسقط ..

وفى نفس لحظة سقوطه ، أطلق الإسرائيليان رصاصات مسدسيهما ..

وانطلقت الرصاصات فوق رأس (فاى) ..

وتجاوزته ..

وكان هذا يعنى أن رجلى (الموساد) قد فقدا عامل المفاجأة .. تمامًا ..

ففى اللحظة التالية ..

أو فى الجزء التالى من الثانية ..

وقبل حتى أن يلمس جسده الأرض ، كان الشاب يهبّ واقفًا ، ويواجه خصميه ..

ويطلق النار ..

مسدسه أيضًا كان مزوّدًا بكاتم للصوت ..

لذا ، فقد انطلقت رصاصته بصوت خافت مكتوم ، فاخترقت عنق أحد الإسرائيليين ، وأصابت كتف الثانى ، الذى أطلق النار مرة أخرى فى غضب ، وهو يهتف :

- أيها الـ ..

قبل أن يكتمل هتافه ، كان (فاى) قد دار حول نفسه فى خفة ، متفاديًا الرصاصة ، وأطلق رصاصته الثانية ، ليطيح بالإسرائيلى ..

وتدفقت دماء أكثر وأكثر على الأرضية ..

وتجمّد الشاب فى مكانه ، متلفتًا حوله فى توتر ..

لقد كان فخًا ..

الإسرائيليون كانوا يعلمون ، على نحو أو آخر ، أنه قادم ..

وتركوا من ينتظره ..

ولكن ما الذى يعنيه هذا ؟!

أكان الأمر مجرّد فخ ؟!

ألم يكن السيّد (رفعت) هنا منذ البداية ؟!

ألم .....

قبل أن يكتمل سؤاله الثانى ، شعر بشىء آخر يقترب ..

وتلفّت حوله فى توتر ..

ثم فجأة ، انقطع التيار الكهربى ..

وغرق المكان فى ظلام دامس ..

ومع الظلام ، اقترب ذلك الشىء أكثر ..

واقترب ..

واقترب ..

وأطلق الشاب طلقة أخرى ، من مسدسه المزوّد بكاتم للصوت ، نحو البقعة ، التى أنبأته أذناه بأن ذلك الشىء يقترب منها ..

ومع الوهج الذى أحدثته الرصاصة ، رأى الشاب خصمه ..

وفى اللحظة ذاتها ، انطلقت زمجرة من حلق ذلك الخصم الألمانى الضخم ، وهو يثب نحوه ، ويغرس أنيابه فى معصمه ..

كان كلبًا ضخمًا ، من طراز (دوبرمان) ، مدرَّب على الانقضاض والهجوم ، دون أن يفصح عن نفسه ، أو يصدر عنه أدنى صوت ..

ومع انغراس الأنياب فى معصم الصبى ، أفلت مسدسه مضطرًا ، وسقط أرضًا ، وهو يقاوم الكلب بكل قوته ..

ودون أن يصدر عنه أيضًا أدنى صوت ..

ومن بعيد ، سمع وقع أقدام تعدو مقتربة ..

وصوت يهتف :

ـ امسكه يا (تيجر) .. لا تسمح له بالإفلات ..

كان (تيجر) يطلق زمجرات مخيفة ، ويضرب بمخالبه ، وأنيابه تفلت معصم الشاب ، وتنقضّ على عنقه فى شراسة ووحشية ..

ولم يكن هناك مجال للتفكير ..

أو الرحمة ..

فالكلب الضخم يهاجم كالنمور المفترسة ..

والآخرون يعدون نحو المكان ..

ولقد فقد مسدسه ..

وتوازنه ..

وفى نفس اللحظة ، اشتعل جهاز اتصال الطوارىء ، المثبت على أذنه اليسرى ، وانبعث منه صوت (نسيم) ، وهو يهتف فى انفعال شديد ، ندر أن يصدر عنه مثله :

ـ من العش إلى الخفاش الليلى .. الغربان تنقل النسر إلى وكر آخر .. المدخل الأمامى .. سيارة سوداء كبيرة .. انطلق أيها الخفاش .. انطلق فورًا ..

وهنا حسم (فاى) الأمر ..

لم يعد يشعر بمخالب (تيجر) ..

أو أنيابه ..

لم يعد يشعر بأى شىء ، سوى أن عليه أن ينطلق فورًا لتنفيذ المهمة ، التى طار من أجلها ، من (القاهرة) إلى (نيويورك) ..

أن ينفذ العملية ..

عملية الأستاذ ..

وبسرعة مدهشة ، وإرادة فولاذية ، استل خنجرًا ، من غمد خاص فى حذائه ، و ...

واتطلقت زمجرة أخرى من حلق (تيجر) :

ـ زمجرة تحمل مزيجًا من الألم والذعر ، عندما اخترق خنجر الشاب قلبه ، قبل أن يدفعه بعيدًا ، وهو يهب واقفًا ، ويغمغم فى شىء من الأسف :

ـ أنت أجبرتنى على هذا .

ولم تكد غمغمته تكتمل ، حتى أضىء المكان بغتة ، وانبعث صوت يهتف :

ـ ها هو ذا !

ومع الهتاف ، ارتفعت فوهات ثلاثة مدافع آلية قصيرة ..

ولكن هتافًا آخر كان يتردَّد فى عقل الشاب ..

ووعيه ..

وكيانه كله ..

« انطلق أيها الخفاش .. انطلق فورًا .. »

وانطلق الخفاش ..

ومن خلفه ، انطلقت رصاصات المدافع الثلاثة ..

ولكن الشاب لم يتوقَّف ..

زمجرة تحمل مزيجًا من الألم والذعر ، عندما اخترق خنجر الشاب قلبه ، قبل أن يدفعه بعيدًا ..

كان عليه أن يقاتل من أجل نجاح المهمة ..

مهما كان الثمن ..

ولما كان المكان مغلقًا ، إلا من النافذة ، والباب الذى يقف عنده خصومه الثلاثة بمدافعهم الآلية ، فقد انطلق الشاب نحو المنفذ الوحيد ..

ووثب ..

وثب عبر النافذة المفتوحة ..

من ارتفاع عشرة طوابق ..

★ ★ ★

(البقية فى الكتاب القادم من كوكتيل ٢٠٠٠ بإذن اللّه)

مقـــدِّمة

هذه الخواطر هى سيرة ذاتية ..
وعمل أدبى ..
جزء من هذا ، وشىء من ذاك ..
إنها ذكريات لفترة من فترات حياتى ، ربما كان لها الفضل ، بعد اللّه (سبحانه وتعالى) ، فيما أصبحت عليه الآن ..
فقد بدأت تلك الفترة طبيبًا عاديًا ، من مئات الأطباء ، الذين حصلوا على شهادتهم الجامعية ، وأنهوا فترة التدريب الإجبارى (الامتياز) ، ثم انتقلوا لقضاء فترة التكليف الإجبارية ..
وانتهت وأنا أضع قدمىَ على أوّل سلمة فى مشوار طويل ، كان ولا يزال مصدر متعتى الوحيد ..
الأدب ..
والقلم ..
والأوراق ..
ولقد تمنيت كثيرًا أن أكتب هذه الذكريات والمذكرات ..
وتردَّدت أكثر فى كتابتها ..
ربما لأننى خشيت ألا يتقبَّل القارئ فكرة أن يضيع الكاتب (أى كاتب) بعض الأوراق ، فى الحديث عن نفسه ..

أو لأنه ليس من السهل أنِ يكتب المرء عن نفسه ..
وحياته ..
وذكرياته ..
ولكن شيئًا ما ، لست أدرى كنهه بالضبط ، جعلنى أحسم تردُّدى هذا .
شىء ما ، جعلنى أعجز عن مقاومة رغبتى فى كتابة هذه المذكرات ..
ربّما لأنها أحداث مرّت عليها خمس عشرة سنة أو أكثر ، وخشيت أن تذوب فى بحر الذاكرة ، فتفقدنى وأفقدها ..
أو ربما لأن المرء يحتاج أحيانًا إلى التحدُّث عن ذكرياته .. ربما .
المهم أن هذه الأوراق بين يديكم الآن ..
اعتبروها مجرَّد عمل أدبى ..
وهذا سيكفينى ..
تمامًا ..

و. نبيل فاروق

★ ★ ★

١ ـ الصـــــعيد ..

« قنـا »

سرت قشعريرة باردة فى جسدى ، وأنا أقرأ اسمى ، فى كشف أطباء التكليف ، دفعة ديسمبر ١٩٨٠م ، وأمامه اسم محافظة (قنا) ، إحدى أكبر محافظات الصعيد ..

بل لعلها أكبر محافظات الصعيد على الإطلاق ، أو أطولها ، فهى تمتدّ من (أبو تشت) شمالاً وحتى (اسنا) جنوبًا ، مرورًا بـ (نجع حمادى) و (دشنا) و (قنا) و (الأقصر) ، وكلها أماكن سياحية أو صناعية شهيرة ..

وهذا ما أعرفه الآن ..

أما عندما قرأت اسمى فى ذلك الكشف ، فكل ما كنت أعلمه ، هو أن (قنا) هى إحدى محافظات الصعيد ..

وفى ذلك الحين ، كانت كلمة (الصعيد) هذه تبدو مبهمة مخيفة ، بالنسبة لسكان وجه بحرى ، فهو اسم يرتبط بالصرامة ، والعنف ، والثأر ..

والعقاب أيضًا ..

بل وربما كان (العقاب) هو المرادف الطبيعى لكلمة (الصعيد) ، فى تلك الفترة من الزمن ، إذ كان أهم ما نعلمه

هو أن من يرتكب خطأ لا يغتفر فى الحكومة ، يتم نقله إلى الصعيد ..

وكانت العبارة تقال ـ آنذاك ـ على نحو أشبه بالنقل إلى الجحيم نفسه ..

وبعد هذه الديباجة السابقة ، أعتقد أنه سيدهشكم بحق أن تعلموا أن تكليفى بالعمل فى (قنا) لم يكن نوعًا من العقاب ، أو حتى من المفاجأة بالنسبة لى ..

لقد كانت الرغبة الأولى ، التى كتبتها على رأس استمارة الترشيح للتكليف ..

والسؤال الذى سيقفز إلى أذهانكم حتمًا هو لماذا ؟!

لماذا يلقى طبيب شاب نفسه فى ذلك الجحيم ، دون أن يكون مضطرًا لهذا ؟!

والجواب أيها السادة هو دبلة الخطوبة ..

نعم .. ففى ذلك الحين ، كنت قد ارتبطت بخطبة زوجتى الحالية ، وهى وحيدة والدها ، الذى لم يمكنه أن يهضم أبدًا خطبتها لطبيب شاب ، فى بداية حياته ، استدان ثمن دبلتى الخطوبة ، ولا يملك سوى راتبه الضخم ، الذى يقل عن الخمسين جنيهًا بعدة جنيهات (كثيرة) ..

ولكن لأنها ابنته الوحيدة ، وتصرّ على الارتباط بهذا الطبيب المفلس بشدّة ، وهو لا يرغب فى لعب دور (زكى رستم)

أو (سراج منير) ، الذى يقف فى وجه ابنته ، ويحطّم قلبها ، فقد وجد أن أفضل وأذكى وسيلة ، هى أن يتخمنى بطلبات مرهقة ، من مهر وشبكة وخلافه ، حتى اضطر إلى الانسحاب ، فى نفس الوقت الذى يرسم هو فوق رأسه تاج القديسين ، وبراءة الأطفال فى عينيه ..

ولأننى لم أكن أدرك أيامها أن الرجل طيب وحنون للغاية ، وأن قليلاً من الضغط سيجعله ينهار ويعترف ، فقد وافقت على كل طلباته (التى ستبدو اليوم مضحكة ، مقارنة بما يطلبه الأهل الآن من لبن العصفور إلى شعر الهدهد اليتيم إلى سوارى (كسرى) ، وأنا أعلم أن هذا سيجشمنى ما لا أطيق ، لعدة سنوات قادمة ..

باختصار ، تقمّصت دور (أبو على) ، وليس فى جيبى ثمن تذكرة أوتوبيس ، للعودة إلى منزلى (من حسن الحظ أننى من مواليد (طنطا) ، ولا توجد ضرورة حتمية هناك للأوتوبيس ..

ولأن أهل الخير كثيرون فى بلدنا هذا ، فقد انهالت علىّ النصائح من كل صوب ، وراح الكل يقترح أى شىء ممكن ، للحصول على المال اللازم ، لإتمام الخطبة والزواج ..

وبعد استبعاد الاقتراحات الخاصة بتهريب المخدرات ، والإتجار فى البضائع المهرّبة ، والعمل كقاتل محترف ، ولأننى لا أصلح بالطبع لمهنة الراقصة ، فلم يعد أمامى سوى اقتراحين لا ثالث لهما ..

إما أن أفتح عيادة ..

أو أسافر إلى منطقة (داخلية أو خارجية) ، يمكننى منها جنى بعض المال ..

وبعد مناقشة قصيرة جدًا ، باستخدام قواعد العقل والمنطق ، تم استبعاد فكرة العيادة من الأساس ، لأن تكاليف فتحها تكفى للخطبة والزواج ، وربما الإنجاب وتعليم الأطفال أيضًا ..

ثم إن فكرة الحصول على عقد عمل خارج البلاد ، كانت تبدو مضحكة ، بالنسبة لطبيب فى نهاية فترة الامتياز ، اللهم إلا إذا كان هذا العقد فى (كوالالمبور) أو بلاد (واق الواق) ..

لذا فلم يعد هناك سوى البحث عن فرصة سفر إلى منطقة داخلية ..

وهنا اقترح أولاد الحلال محافظة (قنا) ..

وكانت حجتهم ـ حينذاك ـ هو أن الوزارة تمنحنا الحق فى العمل الخاص فى فترة التكليف ، بعد مواعيد العمل الرسمية ، كما أن من حقنا الحصول على مقابل للزيارات المنزلية ، وفى المناطق النائية ، مثل محافظة (قنا) ، يكون دخل هذا العمل كبيرًا ، بالإضافة إلى حصولنا على علاوة إضافية ..

وعلى الرغم من جهلى التام ـــ حينذاك ـــ بما إذا كان هذا صحيحًا ، أو حتى قانونيًا ، فقد قبلت الفكرة على الفور (من باب اليأس بالشىء) ، وطلبت أن أقضى فترة التكليف فى (قنا) ..

وظهرت النتائج ..

وقبلت الوزارة مطلبى ..

وهنا راحت السكرة ، وجاءت الفكرة ..

(قنا) ؟!

الصعيد ؟!

لقد قضيت فترة دراستى كلها فى (طنطا) ، وكان مجرّد السفر إلى (القاهرة) يبدو أشبه بمغامرة غير مأمونة العواقب ..

فماذا عن السفر إلى (قنا) ؟!

أما خطيبتى (زوجتى الحالية) ، فقد استقبلت الخبر بوجوم وشحوب ، وخاصة عندما علمت أننا سنحصل على إجازة لمدة ستة أيام فحسب ، كل شهرين ..

ولكنها لم تعترض ؛ لأنها كانت تعلم مثلى أن هذا هو الحل الوحيد ..

والمدهش أن والدها كان أكثر الجميع حزنًا ، وأغزرهم انفعالاً وحنانًا ، عندما ذهبت لوداعهم ، قبل سفرى إلى (قنا) مباشرة ..

فالحقيقة أن الرجل قد اعتبرنى ، ومنذ خطبتى لابنته ، ذلك الابن الذى لم ينجبه أبدًا ..

والمضحك أن الفكرة قد انغرست فى كيانه ، حتى إنه كان يقول لخطيبتى أحيانًا فى حماس :

ـ سلى أخاك .. هل يرغب فى تناول بعض الشاى ؟!

وكنت أنا أعترض ضاحكًا على صفة الأخوة هذه ، التى تحرمنى من الزواج منها ، ولكن لا أحد يمكنه أن يتصوّر سعادتى ، مع التلقائية والبساطة التى كان الرجل (رحمه الله) ينطقها بها ..

المهم أننى أصبحت مكلّفًا للعمل فى (قنا) ..

وكان علىّ أن أستعد للسفر إلى هناك ..

وفى أسرع وقت ممكن ..

وبناءً على هذا ، راحت أمى تعدّ الزاد والزوّاد ، باعتبار أننى مسافر إلى الصحراء والمجاهل المصرية ، ولكننى رفضت بشدّة حمل أى طعام (وما زالت هذه عادتى ، حتى لحظة كتابة هذه السطور) باعتبار أنه ما دام سكان تلك المجاهل يجدون طعامًا لأنفسهم ، فلن أموت جوعًا هناك حتمًا ..

وفى محاولة يائسة منها للاطمئنان ، أرادت أمى أن تعلمنى كيفية طهى الأرز ، أو بعض الخضراوات البسيطة ..

وكما يحدث دومًا فى هذا المضمار ، باءت كل جهودها ومحاولاتها بالفشل الذريع ..

وفى الثانى من مارس ، عام ١٩٨٢م ، حملت حقيبتى إلى (قنا) ، وأنا أتساءل :

ـ هل ستبدو كمدينة عادية ، أم أننى سأضطر لشراء رمح ، لقتال الديناصورات الضخمة هناك ..

ولأولئك الذين يجهلون هذا ، كانت الرحلة ، من (القاهرة) إلى (قنا) تستغرق بالقطار المكيّف اثنتى عشرة ساعة كاملة .

لذا فقد بدأ القطار رحلته فى الثامنة من مساء الثانى من مارس ليصل إلى (قنا) فى العاشرة من صباح اليوم التالى (راجع المدة المذكورة فى العبارة السابقة ، ثم تذكّر أن هذا يحدث فى (مصر) ..

وأخيرًا ، أصبحت فى (قنا) ..

مدينة صغيرة بسيطة ، بدت لى مزدانة متألّقة ، على نحو غير مألوف ، فتصوّرت أنهم قد علموا بقدومى ، واستعدّوا لاستقبالى ، و ..

وقبل أن أتمادى ، وألقى خطبة عصماء ، أو أصافح المارة فى الطرقات ، أخبرتنى لافتة كبيرة أن اليوم .. الثالث من مارس ، هو العيد القومى لمحافظة (قنا) ..

وهكذا حملت حقيبتى الثقيلة ، ورحت أبحث عن مديرية الشئون الصحية القناوية ..

والناس فى (قنا) غاية فى الشهامة والسخاء والكرم ، لذا فلم أكد ألقى أوّل سؤال ، عن مكان المديرية ، حتى كان هناك من يحمل حقيبتى ، ومن يقدّم لى كوبًا من الماء البارد ، ومن يسير إلى جوارى إلى هناك ، مصرًّا على ألا يتركنى ، إلا بعد الاطمئنان إلى أن كل شىء على ما يُرام ..

وامتلأت نفسى بدهشة كبيرة ، مع شعور عارم بالامتنان ، وتساءلت لحظتها : لماذا يلقى البعض نكات عن الصعايدة ؟!

والواقع أنه لو كان هؤلاء هم الصعايدة ، الذين يتحدّثون عنهم ، فهذا يثبت أننا نحن أبناء بحرى ، الذين نستحق أن تقال عنا النكات ..

وبالمناسبة : مرّة واحد ... واللا بلاش ..

★ ★ ★

« مركز تدريب (قفط) .. »

نطقها الأستاذ (شوقى) ، مدير شئون الأفراد فى مديرية الشئون الصحية ، فى صرامة لم يكن لها ما يبرّرها ، وهو يناولنى أوراق تسلُّم العمل ، فتردّدت لحظة ، قبل أن أسأله :

- وأين (قفط) هذه ؟!

رمقنى بنظرة نارية غاضبة ، جعلتنى أتكمش فى مكانى ، وأراجع كل معلوماتى الجغرافية ، بحثًا عن مدينة أو قرية تحمل اسم (قفط) ، قبل أن يأمر الأستاذ (شوقى) بإحضار الفلكة ، التى لا أعرف عنها سوى اسمها ، أو يطالب بإحالة أوراقى إلى المفتى ..

ولكن ملامح الأستاذ (شوقى) لانت فجأة ، وحملت ابتسامة كبيرة ، وهو يقول :

- يا لجهل البحاروة ! (قفط) هذه واحدة من المدن الشهيرة ، فى طريق (قنا) (الأقصر) .. إنها تبعد خمسة أو عشرة كيلومترات فقط عن مدينة (قنا) ..

وبينما ينطق كلماته ، انتبهت إلى ظاهرة عجيبة ..
فالصعايدة ، كل الصعايدة ، لا ينطقون حرف القاف ، وإنما يستبدلون به ـ فى المعتاد ـ حرف الجيم ..
وعلى الرغم من هذا ، فمعظم مدن المحافظة تبدأ بحرف القاف ..
(قنا) .. (قفط) .. (نقاده) .. (قوص) .. (الاقصر) ..
وهم بالطبع ينطقونها (جِنا) (جفط) .. (نَجادة) .. (جُوص) .. (الاجصُر) ..
ولكن ما شأننا نحن بهذا ..
المهم أن الأستاذ (شوجى) .. معذرة (شوقى) أخبرنى أن سيارة المديرية ستحملنى ، مع بعض الأطباء الجدد ، إلى مركز التدريب فى (قفط) ، حيث سنتلقَّى علومنا الإدارية الأولى ، التى تؤهلنا للعب مع الشياطين ..
احم .. أعنى مع كتبة الوحدات الصحية ..
ومنذ اللحظة الأولى ، كانت فى انتظارى مفاجأة فى (قفط) ..
إنها ليست وحدة صحية ، وإنما مستشفى قروى ومركز لتدريب الأطباء الجدد ..
أو بالتحديد ثلاثون طبيبًا شابًا ، سيقيمون معًا ، فى صالة كبيرة ، تتراص فيها الأسرَّة ، كما يحدث فى الوحدات العسكرية ..

ثم إن الدولة ستكفل لنا الإقامة فحسب ..
وليست التغذية ..
وسقط قلبى بين ضلوعى ..
كيف سأقيم مع كل هذا الحشد ، الذى لا تربطنى به أية صلة ؟!
ثم ماذا سنفعل فى أمور التغذية ؟!
واسترجعت حديثى الأخير مع أمى ، ورفضى حمل أية مأكولات ، ورحت أبحث عن الحذاء ، الذى خلعته منذ قليل ..
ليس لأرتديه ، ولكن لأضرب نفسى به ..
لماذا لم تجبرنى أمى على حمل الطعام ؟!
كان ينبغى أن تهدِّدنى بمسدس ..
أو حتى بمدفع آلى ..
ولكن هذا ما جنيته على نفسى ، ولم يجن علىَّ أحد ..
ولكن ما باليد حيلة ..
لا مفر من الاستسلام ..
والجوع ..
ولكن ذلك الجوع ، كما يقولون ، كافر لا يرحم ..
لذا كان من الضرورى أن نسعى جميعًا للبحث عن الغذاء ..
ولكن الأسوأ أنه كان من المحتم أن نتولَّى أمر نظافة العنبر أيضًا ..

ومع الأيام الأولى ، شعرت أننا لسنا فى مركز تدريب .. بل فى معتقل ..

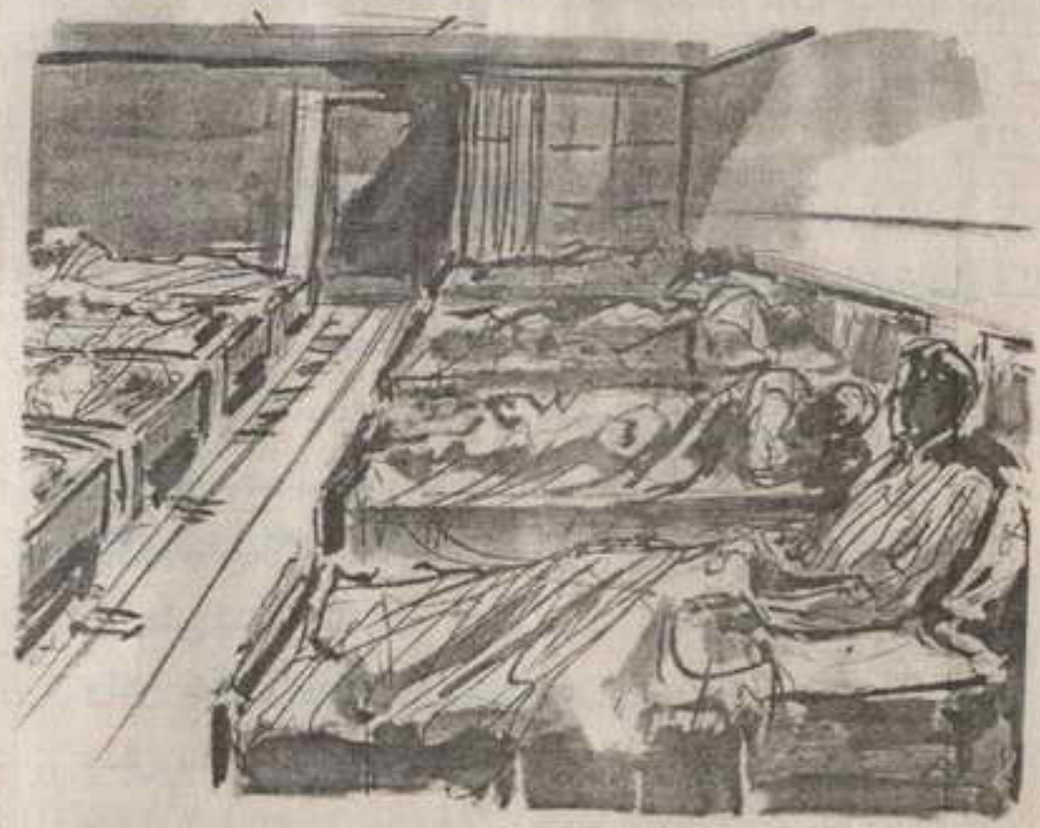

كلاَّ .. لست أعتقد أن الوصف صحيح ؛ لأنه من المؤكَّد أن المعتقلين يجدون بعض الطعام على الأقل ..

ولأننا غرباء ، والغريب أعمى ، ولو كان مبصرًا ، كما يقول المثل ..

ولأننا أكسل من تنابلة السلطان أيضًا ، فإننا لم ننتبه إلى

وجود سوق فى (قفط) ، إلا بعد أن بدأ بعضنا يرى سرابًا ، من شدة الجوع والعطش ..

الشىء الوحيد ، الذى كان يدفعنا إلى النشاط والحركة كان قطار القصب ..

وقطار القصب هذا هو قطار قديم ، يبدو لى أشبه بذلك النوع ، الذى كان يظهر فى أفلام رعاة الأبقار الأمريكية ، فقط ليطارده الهنود الحمر ..

وفى (قفط) ، كان ذلك القطار القديم هو الوسيلة الوحيدة ، لنقل قصب السكر ، من الحقول إلى المصنع ..

وكنا نحن الهنود الحمر ..

فما إن يلوح قطار القصب فى الأفق ، أمام عيوننا وبطوننا الجائعة ، حتى ننفض عن أنفسنا الكسل ، ويدب فينا نشاط إلهى ، وننطلق لنعدو خلف القطار ، للحصول على بعض القصب ..

وبعض الشبع ..

ولست أدرى كيف لم أنتبه ، إلا لحظة كتابة هذه السطور ، إلى ما فى ذلك المشهد من غرابة ، فى قلب الصعيد !!

وأكاد أتصوَّر إخواننا الصعايدة ، وهم يقفون فى حيرة وبلاهة ، متطلعين إلى الأطباء المحترمين ، وهم يجرون بالبيجامات والشباشب ، خلف قطار القصب ..

ومن حسن الحظ أنهم لم يشاهدونا ونحن نأكله ..

هذا كان سيكفى ليتصوّروا أن أبناء البحاروة من أكلة لحوم .. القصب ..

وهذا يكفى لإثبات أن الجوع يطلق صوت المعدة ..

ويخمد صوت العقل ..

ويبدو أن جوعنا قد أثار شفقة أحد الزملاء ، وكان من محافظة (قنا) نفسها ، فتكرّم بإحضار كيس من الخبز الشمسى (وهو نوع من الخبز الصغير (المدملك) ، الذى يتم تخميره فى أشعة الشمس ، قبل وضعه فى الفرن ، و(بطة) ..

نعم .. إنكم لم تخطئوا القراءة ..

لقد أحضر لنا (بطة) ..

ولكن لا تفزعوا ، أو تتصوّروا أن الأطباء الثلاثين قد انقضوا كالوحوش على تلك البطة البرئية المسكينة (المذبوحة طبعًا) ..

فالواقع أن ذلك الزميل (الخبيث) لم يفعل هذا ، إلا بعد أن اطمأن إلى أن الجميع تقريبًا قد انهاروا ، وفروا عائدين إلى بلادهم (ربما لتناول وجبة أو وجبتين) ، ولم يتبق منا سوى سبعة بالإضافة إليه ..

أى أنه كان لكل منا ثُمن بطة ..

وهذا يعدّ وجبة دسمة متخمة ، لمن اعتاد تناول جناح عصفور كل ثلاثة أيام ..

هذا لو أصيب العصفور بأزمة قلبية ، وسقط ميتًا من تلقاء نفسه ..

المشكلة الوحيدة أن السادة الزملاء أصرّوا على أن أقوم أنا بطهو البطة !!

لقد أصابنى نفس ما أصابكم من فزع ، وحاولت إقناعهم بإرجاء التجربة إلى مناسبة أخرى ، يكون فيها أحدهم قد منّ علينا بعلبة سردين أو تونة ، ولا داعى للمخاطرة بالبطة المسكينة ..

ولكنهم أصرُّوا ..

وأصرُّوا ..

ولم يعد أمامى سوى الاستسلام ..

والبكاء على البطة ..

وشمّرت عن ساعدىّ ، وحاولت أن أسترجع ولو سطرًا واحدًا ، من دروس أمى عن الطهى ..

أو حتى عن طرق إشعال الموقد ..

ولقد كان لدينا موقد واحد صغير ، يمكنك أن تصنع عليه كوبًا من الشاى ، خلال مدة قياسية ، لا تزيد على الأسبوعين ..

وكان من المفترض أن أطهو البطة وكثيرًا من الأرز ، على هذا الموقد ..

وهكذا استيقظت من السادسة صباحًا ، ووضعت كثيرًا من الماء ، فى الحلة الوحيدة لدينا ، وألقيت فيه الأرز ، ووضعته على الموقد الصغير ، وجلست أنتظر ..

وأنتظر ..
وأنتظر ..
وأيضًا أنتظر ..
وفى منتصف النهار ، بدأ الماء يغلى ..
وكانت معجزة ..
وبحسبة بسيطة ، أدركت أن البطة سيتم طهيها خلال أسبوع على الأقل ، وهذا بعد أن ينتهى طهو الأرز ، فى الصباح التالى على الأرجح ..
وهنا تفتق ذهنى عن فكرة عبقرية ..
وبمنتهى الهمّة ، صنعت حفرة كبيرة فى قلب الأرز ..
ودفنت فيه البطة (دون أن أترك بصماتى فى مسرح الجريمة بالطبع) ..
وفى حيرة ، سألنى الزملاء :
ـ أهذا ممكن ؟!
وبمنتهى الحماس والثقة (الزائفة) ، هتفت :
ـ بالطبع .
ولم يعترض أحد ؛ لأنهم (كما ثبت فيما بعد) ، كانوا أكثر موهبة منى فى عالم الطهى .
وفى السادسة مساءً ، بدا من الرائحة أن الأرز قد نضج ..
والبطة داخله بالطبع ..

وسال لعاب الجميع ، ونحن نحمل الوعاء إلى مائدة الطعام ، وقد بدا ساقا البطة واضحين خارج الأرز ..
وفى حماس ، جذب أحد الزملاء ساق البطة ..
ولكنه فوجئ بأن ما صعد إليه لم يكن الساق وحدها ..
كان البطة كلها ، مع الأرز كله ، الذى تحوّل إلى عجينة متماسكة ، لم تلتصق بقاع الوعاء ..
ولم تعد تصلح للاستخدام الآدمى ..
وكذلك البطة ..
صحيح أن الكل ثار ، وهاج ، وماج ، وانهال علىّ بالعبارات الغاضبة الساخطة المستنكرة ..
ولكننا فى النهاية أكلنا الأرز ..
والبطة ..
ألم أقل لكم : إن الجوع كافر ..
جدًا ؟!

★ ★ ★

أسبوع واحد وتنتهى فترة التدريب ، بعد أن احتشدت عقولنا بعشرات القواعد واللوائح الإدارية ، ودفاتر العهدة ، واستمارات ١١١ و ١١٢ و ١١٨ ع . ح .
وفوجئنا بأننا سنخوض امتحانًا فى الأمور الإدارية ..
امتحان ؟!

ألن تنتهى الامتحانات أبدًا ؟!

وسألنا عن أرقام الجلوس ، وأقرب مكتبة لبيع أوراق تصلح للبرشام ، و ... ، و ...

وأدركنا جميعًا أن فترة التدريب قد شارفت الانتهاء ..

وأن كلاً منا سيفترق عن الآخرين ، وسيذهب إلى وحدة صحية ، يقوم فيها بعمل الطبيب البشرى ، وطبيب الصحة ، والطبيب الشرعى ، والصيدلى ، وطبيب المعامل ، ومدير المخازن ، ومسئول الثقافة الصحية ، و ...

وكل هذا مقابل راتب ضخم يبلغ ستين جنيهًا مصريًا لا غير ..

ولست أدرى لماذا يذكرنى هذا بالفنان (فؤاد المهندس) ؟!

والعجيب أننى شعرت بالأسف الشديد ؛ لأننى سأفترق عن تلك المجموعة ، التى قضيت معها شهرين كاملين ، فى عنبر واحد ..

ربما لا أذكُر الأسماء كاملة ، ولكن كان هناك (محمود ياسين) (ليس الممثل المعروف بالطبع) ، و(فارس) و(أسامة) و (مدحت عبد الفضيل) ، و (عثمان) ..

كل منا سيذهب إلى مكان منفرد ، فى قرية من قرى محافظة (قنا) ..

ويبدو أن شعورى هذا كان هو نفسه شعور الجميع ، فقد ساد الوجوم المكان ، وانخفضت درجة المرح ، وبدا وكأن كلاً منا يشعر بالحزن ، لأننا أخيرًا سنفترق ..

نفس الحزن ، الذى شعرنا به ، عندما أدركنا أننا سنجتمع فى عنبر واحد فى البداية ..

وما أغرب النفس البشرية !!

ولكن حتى تلك الأيام الأخيرة لم تنته دون موقف ما ..

فقبل امتحان الإداريات بيومين فقط ، كان زميلنا الصعيدى هو المسئول عن إعداد الطعام ، وكنت أجلس معه وحدى فى العنبر ، فى حين ذهب الآخرون لقضاء بعض الوقت فى مدينة (قنا) ..

كان يستعد لعمل وجبة من المعكرونة ، عندما راودتنى فجأة فكرة العبث معه قليلاً ..

ولقد عجزت عن كتمان تلك الرغبة ، فسألته متظاهرًا بالهدوء واللامبالاة :

هل قمت بغسل المعكرونة قبل طهيها ؟!

حدّق فى وجهى بدهشة ، وسألنى :

ـ وهل يتم غسل المعكرونة قبل طهيها ؟!

نظرت إليه باستنكار ، وأنا أؤكّد له أن هذا أمر حتمى ؛ لأننا كنا نبتاع المعكرونة المعبأة فى أجولة ضخمة ، معرّضة للتراب والغبار ..

ومن الواضح أن منطقى قد أقنعه ، فقد قام بكل حماس ، وغسل المعكرونة ، ثم وضعها فوق صحيفة فى الشرفة لتجف ،

قبل أن يقوم بإعدادها ، وأنا أكتم ضحكتى فى أعماقى ، وأتظاهر بالانهماك فى القراءة ..

وعندما عاد الجميع ، كانت المعكرونة قد تحوّلت إلى عجينة ..

وغنى عن القول أننى أنكرت تمامًا فى التحقيقات ، أننى قد نصحته بغسل المعكرونة ..

باختصار ، كانت عملية نظيفة مائة فى المائة ، خرجت منها مثل الشعرة من العجينة ..

عجينة المعكرونة ..

المهم أن الموقف قد مرّ بسلام ، وتحوّل إلى نكتة جديدة ، تضاف إلى نكات الصعايدة ، ورحنا جميعًا نستعد للامتحان ..

ثم جاء الامتحان ..

الأساتذة الأطباء ، مديرو الإدارات الطبية ، أعطونا الأسئلة والأجوبة ، والدرجات ..

وانتهى الأمر ، قبل أن يبدأ ..

وهكذا ، انتهت فترة التدريب ، وبدأنا نستعد للتوزيع ..

وهنا عاد النشاط يدب فى الجميع ، وراح كل من الزملاء يسعى للحصول على وساطة ، ليتم توزيعه على وحدة صحية مناسبة ..

وفى ذلك الحين كان لى قريب فى منصب مدير إدارة الطب البيطرى ، وكان صديقًا لمدير مديرية الشئون الطبية فى (قنا) ، ولقد عرض علىّ قريبى هذا أن يرسلنى إلى أى مكان أشاء ..

ولكننى كنت ، وما زلت أومن بالقدرية ، فى مثل هذه الأمور ..

لست أحب أبدًا أن أختار المصير ، فى الأمور التى أجهلها ..

إننى أترك الأمر كله لله (سبحانه وتعالى) ، حتى يمكننى قبول أية نتائج فيما بعد ، دون أن أشعر بالندم ..

وهكذا تم عمل القرعة التقليدية ؛ لتوزيعنا على القرى والمراكز المختلفة ..

وعندما سحبت الورقة الخاصة بى ، وجدت بها اسم قرية ، لم أسمع بها من قبل قط ..

(أبو دياب شرق) ..

وعندما سألت عن موقع القرية ، التى سأذهب إليها ، تطلّع إلىّ الجميع بإشفاق واضح ، ثم ربّت أحدهم على كتفى ، وهو يبلغنى أنها تبعد سبعة وأربعين كيلومترًا عن مدينة (قنا) ، وأنها تتبع مركز (دشنا) ..

الأمر الوحيد ، الذى لم يبلغنى به ، هو أنه ، من بين الكيلومترات السبعة والأربعين ، كان هناك أربعة وعشرون كيلو مترًا فقط على الطريق الأسفلتى ..

أما الثلاثة والعشرون كيلو مترًا الأخرى ، فكانت فى قلب الجبل ..

أو كما يقول الصعايدة ..

فى حضن الجبل ..

وكان هذا يعنى أن كل ما رأيته ، منذ وصولى إلى (قنا) ، كان الصعيد البرّانى فحسب ..

وأنه منذ هذه اللحظة ، سأبدأ رحلتى فى حضن الجبل ..

فى الصعيد الجوّانى ..

جدًا .

★ ★ ★

(وللحديث بقيّة)

١ ـ دعـــــوة ..

ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتى الصحفى الرومانى (ميشيل) ، وهو يستقبل (باسل) فى مطار (بوخارست) عاصمة (رومانيا) ، وبدت نبرة الترحاب واضحة فى صوته ، وهو يصافحه فى حرارة ، قائلاً :

ـ مرحبًا بك فى (رومانيا) يا (باسل) .. نحن نشكر لك تلبيتك لدعوة صحيفتنا .

أجابه (باسل) بابتسامة ودّ :

ـ بل أنا الذى يشكركم يا رجل ، على اهتمامكم بالمقال الذى أرسلته .

هتف (ميشيل) :

ـ إنه مقال رائع يا (باسل) .. كيف أمكنك معرفة كل هذا ؟

هزّ (باسل) كتفيه ، وقال :

ـ إننى أقرأ كثيرًا .

ربّت (ميشيل) على كتفه فى حرارة ، وقاده إلى سيارة الجريدة التى تنتظر بسائقها أمام المطار مباشرة ، وهو يقول :

ـ أهى أول زيارة لك لرومانيا يا (باسل) .

أومأ (باسل) برأسه إيجابًا وقال :

ـ نعم .. ولكننى قرأت الكثير عنها .

ضحك (ميشيل) وهو يقول :

ـ اليوم إذن سيمكنك مشاهدة ما قرأت عنه .

قال (باسل) مبتسمًا :

ـ هذا لو وجدنا الوقت لذلك .

دعاه (ميشيل) لركوب السيارة ، وهو يقول :

ـ لدينا الوقت كله يا صديقى ، فالسيِّد (أندريه) رئيس التحرير لن يمكنه مقابلتك قبل مساء الغد ، فقد انشغل بلقاء مهم مع وفد أمريكى اقتصادى ، وصل إلى هنا صباح اليوم ، وهذا يعنى أن أمامنا أكثر من ثلاثين ساعة ، يمكننا القيام خلالها بجولة سياحية فى (رومانيا) .. أين تحب أن تذهب ؟

صمت (باسل) لحظات مفكرًا ثم قال :

ـ ما رأيك فى زيارة إلى (ترانسلفانيا) ؟

تطلّع إليه (ميشيل) فى دهشة ، وهو يهتف :

ـ (ترانسلفانيا) ؟! ولماذا (ترانسلفانيا) بالذات ؟!

ابتسم (باسل) وقال :

ـ الحقيقة أننى أرغب فى رؤية قصر (دراكيولا) .

رفع (ميشيل) حاجبيه فى دهشة ، ثم لم يلبث أن خفضهما ، وهو يبتسم فى خبث ، قائلاً :

ـ آه .. أنت تهوى قراءة قصص مصاصى الدماء .. أليس كذلك ؟

هزّ (باسل) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ كلاّ .. لقد قرأت رواية واحدة فى هذا المجال ، وهى تلك التى كتبها الروائى البريطانى (برام ستوكر) عام ١٨٩٧م ، والتى حملت اسم (دراكيولا) وشاهدت فيلمًا أو فيلمين للمثل الإنجليزى (كريستوفرلى) حول الفكرة نفسها ، ولكن ما يجذبنى فى الواقع هو الكونت (دراكيولا) الحقيقى ، الذى أقام هنا ، والذى أوحى للروائى (برام ستوكر) بفكرة روايته الشهيرة .

أومأ (ميشيل) برأسه متفهمًا ، وهو يقول :

ـ لقد أساءوا كثيرًا للكونت (دراكيولا) ووصفوه بأنه وحشى سادى ، متعطش للدماء ، على الرغم من أنه لم يقاتل سوى أعداء البلاد وحدهم .

غمغم (باسل) :

ـ ولكنه كان شديد القسوة بالفعل .

هتف (ميشيل) :

ـ مع الأعداء وحدهم .

أجابه (باسل) فى هدوء :

ـ لا شىء يبرّر القسوة يا صديقى ، حتى مع الأعداء ، فإذا قتلت فأحسن القتلة .

لوّح (ميشيل) بذراعه ، قائلاً :

ـ هذا رأيك .

ثم عقد حاجبيه مفكرًا لحظات ، قبل أن يقول :

ـ ولكن .. هل ترغب فى رؤية قصر (دراكيولا) .. الذى يزوره كل سائح يفد إلى (رومانيا) أم قلعته السرية ؟!

التفت إليه (باسل) فى دهشة ، وهو يقول :

ـ قلعته السرية ؟! لم أقرأ قط عن شىء كهذا !

ابتسم (ميشيل) فى خبث ، وقال :

ـ لو أنك قرأت عنها ، لما أصبحت سرية ؟

بدا توتر شديد فى وجه سائق السيّارة وصوته ، وهو يقول عبارة ما بالرومانية ، فابتسم (ميشيل) وربّت على كتفه ، وهو يردّ على عبارته بأخرى ، ثم التفت إلى (باسل) ، قائلاً بصوت يحمل نبرة ساخرة ، وباللغة الإنجليزية ، التى يتبادلان الحديث بها منذ البداية :

ـ معذرة لحديثنا بالرومانية ، ولكن السائق كان منفعلاً بعض الشىء .

سأله (باسل) :

ـ أهناك ما يؤرقه ؟

ضحك (ميشيل) وقال :

ـ نعم .. إنه أحد أبناء (ترانسلفانيا) وكلهم يصابون بالذعر ، عندما يتحدّث أى مخلوق عن قلعة (دراكيولا) السرّية .

سأله (باسل) فى دهشة :

ـ ولماذا يصيبهم الذعر لهذا ؟

فوجئ بالسائق يقول بالإنجليزية فى عصبية :

ـ أرجوك يا سيّدى .. لا داعى لمناقشة هذا الأمر .

أطلق (ميشيل) ضحكة عالية ، وقال :

ـ اطمئن يا (ميخا) .. لن يغرس (دراكيولا) أنيابه فى عنقك هذا المساء .

بدا الغضب والتوتر على وجه السائق ، فتدخل (باسل) ، قائلاً :

ـ مهلاً .. ما الذى يعنيه هذا ؟

أشار (ميشيل) إلى السائق ، وهو يقول :

ـ نسيت أن أخبرك أن (ميخا) من الفئة الترانسلفانية ، التى تؤمن بأن (دراكيولا) مصاص دماء حقيقى ، وأنه لايزال على قيد الحياة حتى الآن .

قال (ميخا) فى حدة :

ـ هذا حقيقى يا سيّد (ميشيل) .. إنك تسخر منا لأنك لم تر عربته ، وهى تعبر الطريق الضيق فى الجبال ، فى طريقها إلى قلعته ، فى الليالى المقمرة ، تجرّها جياده الرهيبة ، ويقودها سائقه المخيف .

لوح (ميشيل) بكفه ، وقال :

ـ مجرّد وهم .. إنها على الأرجح واحدة من سيّارات فرقة مكافحة المخدرات ، التى تبحث عن المهربين فى الجبال .

قال (ميخا) :

ـ محركات سيارات مكافحة المخدرات لا تطلق صهيلاً يا سيّد (ميشيل) ، ولا تمتص دماء الضحايا .

سأله (باسل) :

ـ ما معنى الحديث عن مص الدماء هذا ؟

أجابه (ميخا) وهو يرتجف :

ـ لقد رأيت هذا بنفسى ، عندما جرؤ مفتش الشرطة فى بلدتنا على الذهاب إلى الجبال وحده ، فى ليلة مقمرة ، وبعدها عثروا عليه صريعًا ، وقد امتص (دراكيولا) دماءه كلها ، لقد نشرت الصحف هذا الحدث .

التفت (باسل) إلى (ميشيل) يسأله :

ـ أهذا صحيح ؟

هزّ (ميشيل) كتفيه وقال :

ـ لست أذكر هذا بالتحديد .

ثم أطلق ضحكة قصيرة ، وهو يسأل (باسل) :

ـ أما زلت تفكر فى زيارة قصر (دراكيولا) ؟

صمت (باسل) لحظة ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ بل أفكر فى زيارة قلعته السرية .

جاء رد فعل (ميخا) أعنف مما تصوّر (باسل) .. فقد

ضغط فرامل السيارة فجأة ، حتى إن جسدى (باسل) و(ميشيل) اندفعا إلى الأمام ، وارتطما بالمقعدين الأماميين ، فهتف الأخير محنقًا :

ـ ماذا أصابك يا رجل .. هل جننت ؟

قال (ميخا) فى حدة :

ـ سيِّدى .. ما تفكّر فيه ضرب من الجنون .

صاح به (ميشيل) :

ـ بل قل : إنك جبان رعديد .

هتف (ميخا) فى غضب :

ـ لست جبانًا ، ولكن الأمر أخطر مما تتصوران .

أجابه (ميشيل) فى حدة :

ـ فليكن يا (ميخا) .. سنذهب إلى قلعة (دراكيولا) السريّة ، بك أو بدونك .

انعقد حاجبا (ميخا) طويلاً ، ثم قال فى عصبية :

ـ فليكن .. سأصحبكما إلى هناك ، ولكننى سأبلغ زوجتى أولاً .. بأننى سأتأخّر طويلاً .. ولا تنسيا أننى حذرتكما .

أوقف السيّارة أمام هاتف عام ، وذهب للاتصال بزوجته ، فقال (باسل) :

ـ عجبًا !! ألم يدهشك أن أبدل موقفه بهذه السُرعة ؟

ضحك (ميشيل) ، قائلاً :

ـ كلاّ .. لقد تعمدت استفزازه ليفعل .

قبل أن يلقى عليه (باسل) سؤالاً آخر ، عاد (ميخا) إلى السيّارة وبدا حازمًا ، وهو يقول :

ـ والآن أيها السيدان ، سننطلق إلى قلعة (دراكيولا) السرية .

وبدأت رحلة الرُعب ..

★ ★ ★

استغرقت الرحلة من (بوخارست) إلى جبال (ترانسلفانيا) وقتًا طويلاً بالفعل ، قطعته السيّارة دون توقُّف ، وانهمك (باسل) خلاله فى أحاديث شتى مع (ميشيل) ، وفى مراقبة الطبيعة على جانبى الطريق ، فى حين لزم السائق (ميخا) الصمت طوال الوقت ، مكتفيًا بإلقاء نظرة سريعة ، كل حين وآخر ، إلى (باسل) و(ميشيل) عبر مرآة السيارة الداخلية ، حتى لاحت بلدة صغيرة من بعيد ، تتألّق تحت أشعة الشمس ، التى اتجهت فى رحلتها نحو المغيب ، فغمغم (ميخا) :

ـ سنحصل على قسط من الراحة هنا ، ونتزوّد بالوقود قبل أن نواصل رحلتنا .

هتف (ميشيل) ضاحكًا :

ـ يا إلهى ! هل يمكنك الحديث ؟! لقد تصوّرتك أبكم ، من طول صمتك .

عقد (ميخا) حاجبيه فى غضب ، فى حين أسرع (باسل) يقول مهدئًا الموقف :

ـ كم تبقى لنا على وصولنا إلى القلعة يا (ميخا) ؟

أجابه (ميخا) فى اقتضاب :

ـ القليل .

لم يفهم (باسل) ما يعنيه بهذا القول المقتضب ، ولكن (ميشيل) قال فى لهجة شبه ساخرة ، تحمل نبرة تهكميّة واضحة :

ـ لقد وصلنا تقريبًا .

ثم أشار إلى الجبال المتاخمة للبلدة ، مستطردًا :

ـ القلعة هناك .

رفع (باسل) عينيه ، يتطلّع إلى الجبال فى اهتمام ، ولكنه لم ير شيئًا ، فربّت (ميشيل) على كتفه ، وهو يقول :

ـ عندما نصل إلى البلدة ستراها جيّدًا .

ولكنه لم يكن محقًا بهذا القول ، فقد بلغوا البلدة بالفعل ، والشمس توشك على المغيب ، ولكن (باسل) لم ير القلعة جيّدًا ، على الرغم من تطلّعه طويلاً إلى الجبال ، فابتسم (ميشيل) وقال وهو يدير جذعه فى مرونة ، ليتخلّص من أثر الجلوس الطويل :

ـ ليس هكذا يا صديقى .

سأله (باسل) :

ـ ما الذى تعنيه ؟

أجابه (ميشيل) ، وهو يلتقط حقيبته من السيّارة :

ـ لن يمكنك رؤيتها بعينيك المجردتين .. ولهذا سأعيرك منظارى المقرّب .

رمقهما (ميخا) بنظرة جانبية ، ثم أشاح بوجهه ، وتشاغل بتزويد السيّارة بالوقود ، ومراجعة الزيوت والشحوم ، فى محطة وقود قريبة ، فى حين ناول (ميشيل) منظاره المقرّب إلى (باسل) وهو يشير إلى نقطة ما أعلى أحد الجبال ، قائلاً :

ـ انظر .. ستجدها هناك .

وضع (باسل) عدسة المنظار على عينيه ، وراح يفحص قمة الجبل فى اهتمام ، و ...

وفجأة ، رآها أمامه تمامًا ..

لم تكن قلعة بالمعنى المفهوم ، ولكن مجرّد أطلال قديمة ، يرتفع من طرفها برج كبير ، تهدّمت قمته ، وامتدّ سورها لعدة أمتار ، قبل أن تبدو نهايته المنهارة .

وكان هناك خندق يحيط بالقلعة ، وجسر خشبى يمتدّ من بوابتها الكبيرة ، ليعبر هذا الخندق ، فى حين تحيط بالمكان بعض الأعشاب والأشجار .

وسأل (ميشيل) (باسل) :

ـ هل تراها جيّدًا ؟!

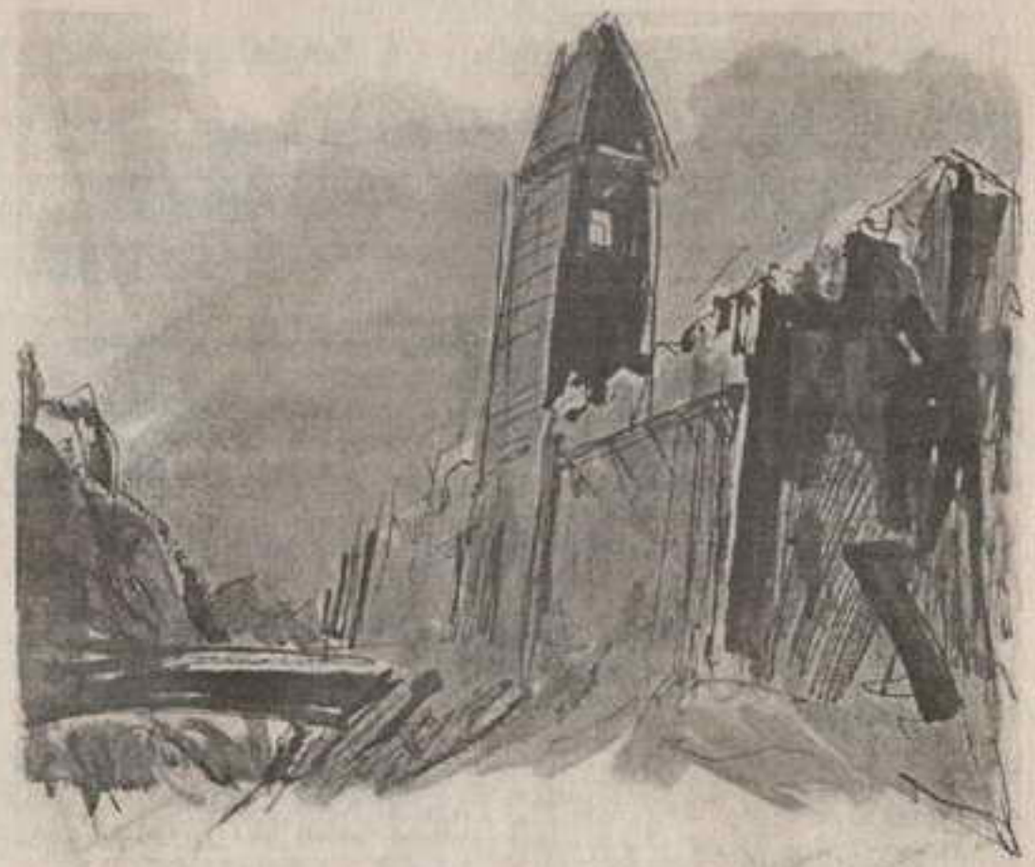

أومأ (باسل) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم .. إنها أطلال قديمة ، و .....

بتر عبارته بغتة ، والتقى حاجباه فى شدة حتى إن (ميشيل) سأله فى قلق :

ـ ماذا هناك ؟

أجابه (باسل) فى انفعال واضح :

ـ هناك .. لقد رأيت ..

لم يتمّ عبارته ، وخفض المنظار عن عينيه ، متمتمًا فى توتر :

ـ عجبًا .. أنا واثق من أننى رأيت هذا !

سأله (ميشيل) فى لهفة :

ـ ما الذى رأيته بالضبط ؟

أجابه (باسل) فى سرعة :

ـ رأيت ضوء مصباح يتحرك ، عبر إحدى نوافذ القلعة ، ومرّ ظلّ أمام الضوء لحظة ، ثم اختفى .

حدّق (ميشيل) فى وجهه بدهشة ، قبل أن يقول فى ارتباك :

ـ ولكن هذا مستحيل يا صديقى .. لا أحد يقيم فى هذه الأطلال القديمة .. إنها متهالكة خالية ، حتى إن هيئة المساحة لم تهتم بإعدادها وتركتها هكذا .

قال (باسل) فى إصرار :

ـ ولكننى لم أكن واهمًا .. لقد رأيت هذا فى وضوح .

هتف (ميشيل) :

ـ مستحيل ! من ذا الذى يمكنه العيش هناك ؟

أتاهما صوت متوتر يقول :

ـ الكونت (دراكيولا) .

التفت الاثنان إلى مصدر الصوت ، ورأيا أمامهما شيخًا طاعنًا متغضّن الوجه ، يبدو كما لو أن عمره يربو على قرن كامل ، وهو يستطرد :

ـ إنه لم يمت بعد .. لقد استغرق فى نوم طويل فحسب ، طوال قرن من الزمان ، ثم استيقظ ليتزوّد بدماء الضحايا .

كان (ميشيل) يهمّ بإلقاء عبارة ما ، عندما اندفع (باسل) ، قائلاً :

ـ ومتى أستيقظ ؟

أجابه الشيخ مرتجفًا :

ـ منذ خمسة أعوام وثلاثة أشهر .

هتف (ميشيل) :

ـ أى هراء هذا ؟! هل ستصدّق ذلك الرجل يا (باسل) ؟ إنك لم تر ما تصوّرت أنك قد رأيته .. إنه مجرّد انعكاس لأشعة الشمس الغاربة ، على إحدى نوافذ القلعة .

بدا (باسل) هادئًا أكثر مما ينبغى وهو يقول :

ـ ربّما .. ولكنه فى هذه الحالة يكون أعجب انعكاس رأيته ، فى حياتى كلها .

لوّح الشيخ بسبّابته فى وجه (باسل) وهو يقول :

ـ ليس انعكاسًا يا فتى .. لو أنك رأيت شيئًا يتحرك هناك ، فهو الكونت (دراكيولا) نفسه .. صدّقنى يا فتى .. إنه هو .

ربّت (باسل) على كتف الشيخ فى هدوء وهو يقول :

ـ سنتأكّد بأنفسنا يا عمّاه .

سأله الشيخ مذعورًا :

ـ ماذا تعنى يا فتى ؟ كيف ستتأكدون من هذا ؟

أشار (باسل) إلى حيث أطلال القلعة ، وهو يقول :

ـ سنذهب إلى هناك .

انتفض جسد الشيخ كله فى عنف ، واتسعت عيناه فى ذعر لا مثيل له ، وهو يحدّق فى وجه (باسل) مغمغمًا فى ارتياع :

ـ تذهبون إلى هناك ؟! هل أصابكم مسّ من الجنون ؟

أجابه (ميشيل) فى عصبية :

ـ ربما أيها الشيخ ، ولكننا لا نُصدّق حرفًا واحدًا من هذا كله ، وسنذهب الليلة إلى تلك الأطلال القديمة ، ونعود فى الصباح ، لنسخر منك ومن كل من يصدق هذه الخرافات .

التفت إليه (باسل) وهو يقول فى صرامة :

ـ ليس من اللائق أن تتحدّث إلى شيخ بهذا الأسلوب .

صاح (ميشيل) :

ـ ألم تسمع ما قاله ؟

أجابه (باسل) فى حزم :

ـ مهما فعل .. احترام كبار السن واجب ، لا أتنازل عنه قط .

صرخ (ميشيل) فى وجهه بعصبية بالغة :

ـ من تظن نفسك أيها العربى ؟! هل أتيت إلى هنا ، لتلقى على مسامعى محاضرات سخيفة حول الأخلاقيات والمثل ؟

ظهر (ميخا) بينهما فى هذه اللحظة وهو يقول :

ـ رويدكما ! هل بدأ الخوف يسرى فى عروقكما الآن ؟

كانت عبارته كافية لامتصاص غضب (ميشيل) ، الذى حدق فى وجه (باسل) لحظة ، ثم انفجر ضاحكًا ، وقال :

ـ كلا .. ليس بعد .. إنه بعض التوتر فحسب .. ولكن أخبرنى ، هل انتهيت من التزود بالوقود وإعداد ما يلزم ؟

أجابه (ميخا) :

ـ نعم .. كل شىء على ما يُرام .. هل نبدأ رحلتنا الآن ؟

لم تمض دقائق على هذا الحديث حتى كانت السيارة تغادر بهم البلدة ، والشيخ يراقبهما فى هلع وذعر ، فى حين عاود (ميشيل) توتره ، وهو يقول :

ـ لقد أسدل الليل أستاره .. يا له من وقت ، لبدء رحلة كهذه !

قال (ميخا) فى خفوت :

ـ كل الأوقات تتساوى فى مواجهة مصاصى الدماء .

لم يعلق (باسل) على عبارتيهما ، بل اكتفى بمراقبة ذلك الطريق الضيق ، شبه الممهد ، الذى يعبر الجبل ، ويمر وسط دغل كثيف ، صاعدًا إلى قمة الجبل ، فى شكل حلزونى شبه منتظم ، و ...

وفجأة سرت فى أجساد الثلاثة قشعريرة باردة كالثلج ، واحتبست أنفاسهم دفعة واحدة ، مع ذلك الصوت ، الذى انطلق بغتة وسط الدغل ..

صوت الصهيل ..

صهيل عربة مصاص الدماء ..

★ ★ ★

٢ ـ الرعـــب ..

لم يكد ذلك الصهيل ينطلق ، من أعماق الدغل ، حتى ضغط (ميخا) فرامل السيارة فى قوة ، واندفع جسدا (باسل) و(ميشيل) مرّة أخرى إلى الأمام فى عنف ..

ولكن أحدًا منهما لم يعترض .

لقد ران على الجميع صمت رهيب ، داخل السيارة المغلقة ، ووسط الظلام المحيط بها من كل جانب ، قبل أن يقول (ميخا) فى توتر :

ـ هل سمعتما هذا ؟

أجابه (باسل) فى صوت خافت :

ـ إنه صهيل جياد .

أما (ميشيل) فهتف فى عصبية :

ـ هراء .. إنه مجرّد صفير رياح تعبر ما بين الأغصان المتشابكة .

ردّد (ميخا) فى مزيج من الدهشة والاستنكار :

ـ صفير رياح ؟!

كان محقًا فى دهشته واستنكاره ، إذ كان الجو خارج السيارة ساكنًا هادئًا ، إلا من نسمات رقيقة ، تهب بين حين

وآخر ، ولقد شعر (ميشيل) نفسه بسخافة الفكرة ، فقال فى حدة :

ـ أو هو جواد جفل من صاحبه ، وضلّ طريقه وسط الدغل .

التفت (ميخا) ينظر إليه مستنكرًا ، فى حين اكتفى (باسل) بالتطلع عبر النافذة المجاورة له ، فى محاولة لاختراق الظلام ، ثم اعتدل (ميخا) وقال :

ـ هل نعود ؟

صاح به (ميشيل) :

ـ بل سنواصل طريقنا بالطبع .

تطلّع (ميخا) إلى (باسل) فى مرآة السيارة الداخلية ، وقال :

ـ ما رأيك أنت يا سيد (باسل) ؟

أجابه (باسل) فى هدوء :

ـ لم يحدث ما يمكن أن يعوق رحلتنا يا (ميخا) سنواصل السير حتى نبلغ القلعة .

هزّ (ميخا) كتفيه ، وكأنما الأمر لا يعنيه ، وعاد ينطلق بالسيارة ، ويشق الظلمات بضوء مصباحيها ..

وفجأة ، سطع ضوء قوى فى مواجهة السيارة ، وهتف (ميخا) وهو يخفى عينيه بذراعه :

ـ ما هذا بالضبط ؟

اعتدل (باسل) يتطلّع إلى الأمام فى اهتمام ، فى حين خفق قلب (ميشيل) فى عنف ، وهو يقول متوترًا :

ـ ماذا حدث ؟ ما الذى يعترض طريقنا ؟

أوقف (ميخا) السيارة ، وخفت الضوء الساطع أمامها قليلاً ، ثم بدا ظل بشرى يتحرّك أمامه ، فهتف (ميشيل) مرة أخرى ، وصوته يحمل رنة عصبية واضحة :

ـ ما هذا بالضبط ؟

لم يكد ينتهى من قوله ، حتى بدا جسد بشرى واضح ، فى مساحة الضوء لرجل يرتدى ثياب الشرطة الرومانية ، اتجه مباشرة إلى (ميخا) وانحنى يتطلّع عبر النافذة المجاورة له ، إلى (باسل) و (ميشيل) وهو يقول :

ـ أوراقكم لو سمحتم .

ناوله (ميشيل) الأوراق ، وهو يقول فى شىء من الانفعال :

ـ إننا صحفيون .

فحص رجل الشرطة الأوراق فى سرعة ثم أعادها إليهم ورفع قبعته ، قائلاً :

ـ معذرة ، إنه تفتيش روتينى .. أنا الضابط (لوركا) من شرطة مكافحة المخدرات .. ولكن ماذا تفعلون هنا ، فى مثل هذا الوقت ؟

أجابه (ميشيل) فى توتر :

حتى بدا جسد بشرى واضح فى مساحة الضوء لرجل يرتدى ثياب الشرطة الرومانية ..

ـ نحن فى طريقنا إلى القلعة .

رفع الضابط (لوركا) حاجبيه فى دهشة ، وهو يقول :

ـ قلعة من ؟! لعلك لا تقصد أطلال قلعة (دراكيولا) .

قال (باسل) بسرعة :

ـ هو كذلك .. نحن نقصد القلعة السرية .

مطَّ الضابط شفتيه ، وهزَّ رأسه ، قائلاً :

ـ لو أننى فى موضعكم لما فعلت هذا قط .

قال (ميشيل) فى عصبية :

ـ هذا لأنك لست رجل صحافة .

وأضاف (باسل) فى صوت رصين :

ـ ثم إن القمر لم يكتمل بعد .

بدت الدهشة لحظة على وجه الضابط (لوركا) ورفع رأسه يتطلَّع إلى السماء قبل أن يتمتم فى خفوت ، خُيِّل إلى (باسل) أنه يحمل نبرة غاضبة :

ـ نعم .. هذا صحيح .

ثم أفسح الطريق أمام السيارة ، وهو يقول :

ـ حسن .. واصلوا طريقكم ما دمتم بهذه الحماقة .

انطلق (ميخا) بالسيارة فى صمت وقطع ما يقرب من كيلو مترين ، قبل أن يسأله (باسل) :

ـ تقولون إن مصاص الدماء المزعوم هذا لا يظهر إلا فى

الليالى المقمرة التى تكتمل فيها استدارة القمر .. أليس كذلك ؟

صمت (ميخا) قليلاً ، ثم قال :

ـ ليس بالضرورة .

لم يناقشه (باسل) هذه المرّة ، ولاذ بالصمت التام ، والسيارة تواصل طريقها حتى لاحت أطلال القلعة من بعيد وقال (ميخا) :

ـ لقد وصلنا .

لم يكد ينطقها ، حتى انطلق ذلك الصهيل مرة أخرى ، فهتف (ميشيل) :

ـ أوقف السيارة ما (ميخا) .

ضغط (ميخا) الفرامل بحركة سريعة ، وتوقَّفت السيارة على بعد مائة متر من أطلال القلعة ، ولكن (ميخا) أبقى مصابيحها مضاءة هذه المرة وهو يتمتم :

ـ إنه ليس صفير رياح هذه المرّة يا سيِّد (ميشيل) ، أليس ...

قاطعه (باسل) فى صرامة :

ـ اصمت .

عقد (ميخا) حاجبيه ، وهو يقول :

ـ ماذا أصابك يا سيد (باسل) ؟ ألا يروق لك حديثى هذه الـ ...

قاطعه (باسل) فى صرامة أكثر هذه المرة :

ـ قلت لك اصمت .

لاذ (ميخا) بالصمت تمامًا ، فى حين همس (ميشيل) فى توتر ، عندما لاحظ حاجبى (باسل) المتعانقين ، ومحاولته لإرهاف سمعه :

ـ ماذا هناك بالضبط ؟

أجابه (باسل) فى اقتضاب شديد :

ـ أنصت .

أرهف (ميشيل) السمع بدوره ، ثم هتف :

ـ إنه وقع حوافر جياد تقترب .

لم يكد يتمّ عبارته حتى تعالى الصهيل مرة أخرى ، واقترب وقع حوافر الجياد ، حتى صار مسموعًا فى وضوح ثم فجأة ظهرت العربة .

عربة سوداء كالليل ، تجرّها أربعة جياد تكاد تذوب مع الظلام ، ويقودها رجل يرفل فى ثوب أسود ، يخفى جسده كله ،

من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ، ويحمل سوطًا رفيعًا طويلاً ، يفرقعه فى الهواء ، فوق رءوس الجياد الأربعة ، فتنطلق بكل سرعتها وقوتها وتنهب الأرض نهبًا .

كانت أشبه بعربات النبلاء فى العصور الوسطى ، ولكن السواد الذى اصطبغت به منحها مظهرًا رهيبًا مخيفًا ، وهى تعبر أمام سيارة الجريدة ، وتنطلق فى ضوء مصباحيها فوق الطريق شبه الممهد ، متجهة إلى القلعة .

ثم أطفأ (ميخا) مصباحى السيارة واختفت العربة وسط الظلمة ، فهتف (باسل) فى دهشة :

ـ لماذا فعلت هذا ؟

أجابه (ميخا) فى عصبية :

ـ لم .. لم أحتمل رؤية تلك العربة .

صاح به (باسل) :

ـ اشعل المصباحين مرة أخرى يا رجل .. أريد أن أرى أين ستذهب تلك العربة .

عاد (ميخا) يضىء المصباحين ، ولكن الطريق حتى القلعة بدا صامتًا ساكنًا فتمتم (ميشيل) فى توتر :

ـ لقد اختفت .

ران على السيارة صمت ثقيل ، بعد أن انتهى من عبارته ، ثم قطع (باسل) هذا الصمت وهو يقول :

ـ هيّا .. سنواصل طريقنا .

التفت إليه (ميخا) فى دهشة ، وهو يقول :

ـ أأنت واثق من هذا ؟

أومأ (باسل) برأسه إيجابًا ، فتنهّد (ميخا) وانطلق مرّة أخرى بالسيارة ، وقطع الأمتار المائة ، التى تفصله عن القلعة فى لحظات ، ثم توقف أمام ذلك الجسر الصغير الذى يعبر الخندق العميق المحيط بالقلعة إلى بوابتها ، وقال :

ـ لا يمكننى عبور هذا الجسر القديم بالسيارة ، إنه أضيق وأضعف من أن يحتملها .

قال (ميشيل) :

ـ لا بأس .. سندخل القلعة سيرًا على الأقدام .

هبطوا من السيارة ، وعبروا ذلك الجسر إلى بوابة القلعة ، ولم تكد أجسادهم تستقر داخل المكان ، حتى صدرت فرقعة عجيبة ، ثم ارتفع الجسر بغتة ، وأغلق بوابة القلعة فى دوى عنيف ، فصرخ (ميخا) :

ـ ربّاه !! لقد أصبحنا سجناء هنا .

ولم ينبس (باسل) أو (ميشيل) ببنت شفة ..

لقد أصبحوا بالفعل سجّناء فى تلك القلعة :

ـ قلعة الرعب ..

★ ★ ★

انتفض جسد (ميشيل) فى عنف ، عندما ارتفع الجسر فجأة ، وسجنهم داخل القلعة ، وصرخ (ميخا) فى ذعر :

ـ إنه هو .. إنه الكونت (دراكيولا) .. لقد أصبحنا أسرى فى قلعته .. إنه سيمتص دماءنا حتى آخر قطرة .

هتف به (باسل) فى صرامة :

ـ رويدك يا رجل .. ربما ارتفع الجسر بسبب خلل فى أجهزة رفعه ، عندما عبرنا فوقه .

قال (ميخا) فى صوت أقرب إلى البكاء :

ـ وأين هذه الأجهزة .. لست أرى شيئًا ، وسط هذا الظلام الدامس .

أخرج (ميشيل) مصباحه اليدوى ، وأضاءه ، وهو يقول :

ـ لن يستمر هذا الظلام إلى الأبد .

وعلى ضوء المصباح ، بدا لهم المكان لأول مرة ..

كانوا داخل ممر ضيق ، يربط ما بين بوابة القلعة وساحتها ، ولا يحوى سوى مشعل قديم ، معلّق على الجدار، انتزعه (باسل) وهو يسأل (ميشيل) :

ـ ألديك قدّاحة لإشعاله ؟

أجابه (ميخا) بسرعة :

ـ لدى قدّاحتى .

مضت دقيقة كاملة ، قبل أن تشتعل النيران فى قمة المشعل ،

وأضفى تراقص النيران رهبة أكثر على الممر ، حاول (باسل) تبديدها ، وهو يقول :

ـ ادخر طاقة مصباحك الآن يا (ميشيل) ، ودعنا نبحث عن مخرج آخر ، من هذا المكان .

قال (ميخا) :

ـ لا يوجد أى مخرج آخر .. هذه القلعة محاطة بذلك الخندق العميق الذى رأيتماه ، والوسيلة الوحيدة لدخولها والخروج منها ، هى ذلك الجسر .

تطلّع إليه (باسل) لحظة فى صمت ، ثم قال :

ـ يمكننا أن ندفع الجسر ، و ...

قاطعه (ميخا) بسرعة :

ـ مستحيل ! إن وزنه يربو على الطن ، ولا يمكن تحريكه إلا بجهاز خاص .

هتف (ميشيل) فى عصبية :

ـ فيم انتظارنا إذن ؟! فلنبحث عن ذلك الجهاز السخيف .

تحرك الثلاثة إلى ساحة القلعة ، وراحت نيران المشعل تصنع ظلالاً مخيفة ، تنعكس على الجدران ، وأشار (ميخا) إلى مبنى نصف متهدّم ، وهو يقول :

ـ أعتقد أننا سنجد جهاز التحكم فى الجسر هنا .

تطلّع (باسل) إلى المبنى ، وقال :

ـ كلا .. لا أعتقد هذا .. إنه أبعد مما ينبغى ، بالنسبة لآلة بدائية ، ترفع وتخفض الجسر .. الأرجح أن يكون ذلك الجهاز هناك ، فى هذا البرج .

اضطرب (ميخا) على نحو ملحوظ ، عندما أشار (باسل) إلى البرج الوحيد ، الذى لم ينهر بعد ، من أبراج القلعة ، فسأله (ميشيل) فى صراحة :

ـ ماذا أصابك هذه المرة ؟

أجابه (ميخا) فى توتر :

ـ لن أذهب إلى هذا البرج بالذات ، ولو دفعتما لى أموال الدنيا كلها .

التفت إليه (باسل) فى اهتمام ، فى حين سأله (ميشيل) :

ـ ولماذا هذا البرج بالذات ؟

أشار (ميخا) إلى البرج ، وهو يقول :

ـ إنه يقيم هناك .

صاح به (ميشيل) بصبر نافد :

ـ من تعنى أيها المأفون ؟

أجابه (ميخا) فى حدة :

ـ صاحب القلعة .. الكونت .. الكونت (دراكيولا) .

استدار (ميشيل) و (باسل) فى آن واحد ، يتطلعان إلى ذلك البرج ، الذى يرتفع فى أقصى يمين السور الأمامى للقلعة ،

والذى بدا بالفعل أكثر قوة ومتانة ، وكأنما أعيد تجديده منذ زمن قريب ، وقال (باسل) :

ـ إنه مجرّد لغو .. وحتى لو كان الأمر كما تقول ، فما يزال هذا البرج هو المكان الأمثل ، لوجود جهاز التحكّم فى الجسر ، وأنت نفسك قلت : إن الأمل الوحيد فى خروجنا من هنا ، هو خفض الجسر .

تمتم (ميخا) :

ـ هذا صحيح .. ولكن ..

قاطعه (ميشيل) فى حزم :

ـ لن نناقش هذه السخافات .. سنتجه مباشرة إلى هذا البرج .

تردّد (ميخا) لحظة ، ثم هزّ كتفيه ، قائلاً :

ـ فليكن .. لقد حذرتكما .

قالها وتبعهما إلى درجات السلم الضخم ، التى تقود إلى قمة أسوار القلعة ، حيث مدخل البرج ..

كانت الأسوار ترتفع لعشرة أمتار ، حيث يمتد إفريز عريض ، يبدأ عنده مدخل البرج ، ولم يكد الثلاثة يبلغون الإفريز ، حتى أطلق (ميشيل) زفرة قوية ، وهتف فى حنق وتوتر :

ـ لماذا كانوا يصنعون درجات السلم بهذه الضخامة ؟ من كان يصعد إلى قمة الأسوار ؟ العمالقة ؟!

أجابه (ميخا) ، وهو يلوّح بسبّابته أمام وجهه :

ـ الكونت (دراكيولا) لا يحتاج إلى درجات السلم .

قال (باسل) ضاحكًا :

ـ لماذا ؟ هل يطير ؟

هتف (ميخا) بسرعة :

ـ بالطبع .. ألم تقرأ شيئًا عن هذا ؟ الكونت (دراكيولا) هو مصاص الدماء الوحيد ، الذى يمكنه أن يتحوّل إلى خفّاش أو ذئب .

قال (ميشيل) ، فى لهجة امتزجت سخريتها بغضبها :

ـ وماذا عن الباقين ؟ هل يتحوّلون إلى ضفادع وثعابين وعقارب ؟!

صاح (ميخا) :

ـ لماذا تسخر من مثل هذه الأمور يا سيّد (ميشيل) ؟

أجابه (ميشيل) فى حدة :

ـ لأنها لا تستحق أكثر من السخرية ، والـ ...

بتر عبارته بغتة ، وارتجف جسده فى شدّة ، واتسعت عيناه فى هلع واضح ، وهو يحدّق فى نقطة ما ، فى الجانب المقابل من الأسوار ، فالتفت (باسل) إلى حيث ينظر ، وهو يهتف فى قلق :

ـ ما الذى أفزعك إلى هذا الحد ؟

شحب وجه (ميشيل) ، وارتجفت سبّابته ، وهو يشير إلى حيث ينظر ، قائلاً :

ـ هناك .. لقد رأيت الـ .. الـ .. الـ ..

كان منفعلاً ، حتى إنه عجز عن إتمام عبارته ، فربَت (باسل) على كتفه مهدئًا ، وهو يقول فى صوت خافت :

ـ اهدأ يا رجل .. اهدأ يا صديقى .. ما الذى رأيته بالضبط ؟

حدّق (ميشيل) فى تلك النقطة ، على الجانب المقابل من الأسوار ، قبل أن يقول فى اضطراب عظيم :

ـ كان يقف هناك .. هو نفسه .. بشحمه ولحمه ، ووجهه المخيف البارد .

سأله (باسل) فى دهشة شديدة :

ـ من تقصد ؟

هتف (ميخا) :

ـ ومن سواه ؟ ألم تفهم بعد يا سيِّد (باسل) ؟ إنه يقصده هو .. يقصد الكونت (دراكيولا) .

قال (ميشيل) فى توتر شديد :

ـ نعم .. الكونت (دراكيولا) .. كان يقف هناك ، ونظر إلىَّ لحظة ، ثم اختفى داخل ذلك الباب المفتوح .

عاد (باسل) يلقى نظرة على المكان نفسه ، ثم قال فى قلق :

ـ ربّما هو ظل ، أو ...

لم يحاول إتمام عبارته ، إذ بدا له أنها لن تفيد كثيرًا ، فى التخفيف من توتر (ميشيل) ، أو إقناعه بأنه لم ير ما يعتقد أنه قد رآه ، لذا فقد أدار دفة الحديث بعيدًا ، وهو يقول :

ـ فليكن .. سنتظاهر بأنك لم تر شيئًا ، ونركز جهودنا على دخول هذا البرج .

قالها ودفع باب البرج بكل قوته ..

ولكن الباب لم يستجب ..

وقال (ميخا) فى توتر :

ـ إنه مغلق من الداخل بالتأكيد .. لن يتركه الكونت مفتوحًا .

حاول (باسل) دفع الباب عدة مرات ، ولكنه كان مغلقًا من الداخل بالفعل ، فتمتم (ميشيل) فى خفوت :

ـ لن يمكننا دخوله .

ولكن (باسل) مال من جانب السور ، وقال :

ـ ربما توجد وسيلة ، فهناك نافذة للبرج ، إلى جوار السور ، ويمكننى الوصول إليها ، وفتح الباب من الداخل .

تطلّع إليه (ميشيل) و (ميخا) فى صمت ، دون أن يحاولا الاعتراض ، فوثب يقف على قمة السور ، ثم مال فى رشاقة ، وتعلّق بحافة النافذة ، وهو يقول :

ـ أرأيتما .. إنها ليست بالمهمة الصعبة ، أو ...

بتر عبارته بغتة ، وهو يحدّق فى نقطتين لامعتين حمراوين أمامه .. ثم انطلق ذلك الخفاش فجأة عبر النافذة ، وارتطم بوجهه ، و ..

وأفلتت يد (باسل) ، وهوى ..

هوى من أعلى أسوار القلعة ..

★ ★ ★

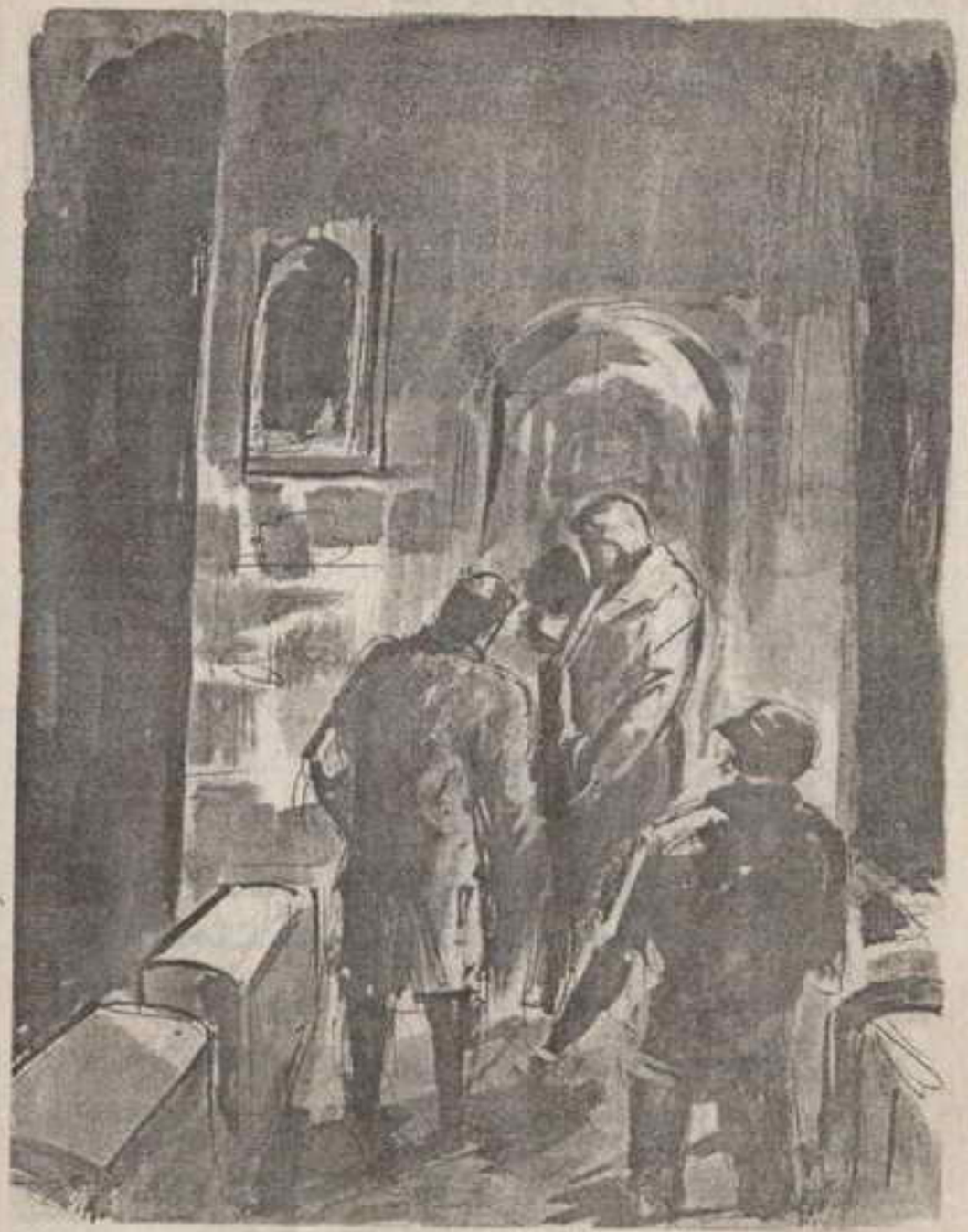

قالها ودفع باب البرج بكل قوته ..
ولكن الباب لم يستجب ..

٣ ـ الـــــدم ..

لم يكن هنـاك حائل واحد ، بين (باسل) ، والسقوط من فوق أسوار القلعة ..

ولكن يد (ميشيل) امتدّت فجأة ، لتقبض على معصم (باسل) ، قبل أن يهوى جسده إلى أعماق الخندق ، المحيط بالأسوار ، وارتفع صوت (ميشيل) يصرخ فى انفعال :

ـ تماسك يا (باسل) .. تشبّث بيدى جيدًا .

ولم يكن (باسل) بحاجة فعليًا إلى القول ، فلم يكد يشعر بأصابع (ميشيل) حول معصمه ، حتى دفع قدميه إلى الأمام ، وألصقهما بجدار القلعة ، ليخفف من سرعة سقوطه ، ثم رفع يده الأخرى ليمسك بحافة السور ، فتراجع (ميشيل) بسرعة ، وهو يجذبه إلى أعلى ..

ولم يستغرق الأمر أكثر من ثوان معدودة ، وجد (باسل) نفسه بعدها فوق ذلك الإفريز العريض ، المحيط بأسوار القلعة من الداخل ، وسمع (ميشيل) يلهث ، قائلاً :

ـ لست أصدّق أننى فعلت هذا .. لقد رأيت ذلك الخفّاش يندفع عبر النافذة ، ورأيتك تسقط ، ثم وجدت نفسى أقفز بكل

قوتى ، وأمسك معصمك .. صدقنى يا (باسل) .. لست أدرى كيف فعلتها .

ربّت (باسل) على كتفه ، وهو يلهث بدوره ، قائلاً :

ـ إنها مشيئة اللّه (عز وجل) يا رجل .. لم تحن لحظة مصرعى بعد .

اندفع (ميخا) فى هذه اللحظة ، يسأله :

ـ ولكن ماذا حدث هناك ؟ أهو الخفاش الذى أفزعك فحسب ؟

تطلّع (باسل) إليه لحظة فى صمت ، قبل أن يجيب :

ـ بل رأيت شيئًا أدهشنى .

سأله (ميشيل) بسرعة :

ـ شىء مثل ماذا ؟

أجابه وهو يلوّح بكفه :

ـ شىء أشبه بزوج من الأعين البشرية ، تضىء بلون أحمر وسط الظلام .

تراجع (ميخا) فى حركة حادة ، وحدّق فى باب البرج ، هاتفًا :

ـ إنه هو .. إنه يدافع عن برجه ..

قال له (ميشيل) فى صرامة :

ـ كف عن سخافاتك هذه يا (ميخا) .

صاح (ميخا) :

ـ سخافاتى ؟! لقد رآه السيّد (باسل) بنفسه .. ألم تريا كيف تحوّل إلى خفّاش أمام أعيننا ، وطار فى وجه السّيد (باسل) ؟!

ابتسم (باسل) ، وهو يقول :

ـ إننى لم أقل شيئًا كهذا يا رجل .. لقد رأيت شيئًا يشبه الأعين البشرية ، ثم طار خفّاش فى وجهى ، وهذا لا يعنى كل ذلك .. إنه مجرّد خفّاش ، أفزعه تواجدى المباغت ، والخفافيش ـ كما تعلم ـ تتخذ من تلك الأطلال القديمة مستقرًا فى المعتاد .

ثم نهض يعتلى السور مرة أخرى ، مستطردًا :

ـ وسأثبت لك أننى لا أوافقك على رأيك .

وثب فجأة ، ليتعلق بحاجز النافذة ، ثم دفع جسده عبرها ، فهتف (ميخا) :

ـ سيقتنصه مصاص الدماء .. سينتزع كل قطرة دم فى جسده .

لوّح (ميشيل) بيده فى وجهه ، هاتفًا :

ـ اصمت يا رجل .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى فتح (باسل) الباب من الداخل ، وهو يقول :

ـ أرأيتما ؟ لم يكن ذلك بالأمر العسير .

بدا (ميخا) شديد التوتر ، وهو يحمل المشعل ، فى حين أسرع (ميشيل) يعبر الباب ، وهو يسأل (باسل) :

ـ هل وجدته مغلقًا من الداخل ؟

أجابه (باسل) :

ـ نعم .. كان ذلك .

هتف (ميخا) :

ـ إذن فهو فى الداخل .

ضحك (باسل) وهو يقول :

ـ عجبًا ! ألم تقل منذ قليل : إنه غادر البرج فى هيئة خفّاش ؟

ولكن (ميشيل) لم يشارك (باسل) سخريته هذه المرّة ، وإنما عقد حاجبيه ، وهو يقول فى جدية ، لا تخلو من التوتر :

ـ الأمر لا يحتمل السخرية يا (باسل) ، فكون الباب مغلقًا من الداخل ، يعنى أنه هناك شخص ما ، أو شىء ما هنا .

وافق (باسل) بإيماءة من رأسه ، وقال :

ـ بالتأكيد .. وهناك أيضًا ما هو أخطر .

سأله (ميخا) فى قلق واضح :

ـ مثل ماذا ؟

أشار (باسل) إلى رتاج الباب ، وهو يقول :

ـ مثل هذا .. إنه رتاج حديث ، من ماركة يل العالمية ،

ولا أعتقد أن صديقنا الكونت (دراكيولا) كان يمتلك مثله فى عصره .

حدّق (ميشيل) فى الرتاج بدهشة ، وغمغم :

ـ هذا صحيح .

أما (ميخا) ، فلوّح بكفه ، وقال :

ـ وماذا فى هذا ؟ هل تظن أن الكونت (دراكيولا) سيظل حتى أبد الدهر ، دون أن يجدّد قلعته .

قال (باسل) بسرعة :

ـ وكيف سيفعل يا رجل ؟ هل يستعين بعمال من مصاصى الدماء القدامى ؟!

عقد (ميخا) حاجبيه فى غضب ، فى حين قال (ميشيل) :

ـ إنها نقطة تستحق التوقّف والتفكير بالفعل يا (باسل) .

أشار (باسل) إلى أعلى ، وقال :

ـ وربما وجدنا الجواب هناك .. فى حجرة البرج .

تطلّع (ميخا) و (ميشيل) إلى حيث يشير ، ثم غمغم الأخير :

ـ نعم .. ربّما .

التقط (باسل) المشعل من (ميخا) ، وراح الثلاثة يصعدون كل تلك الدرجات ، حتى حجرة البرج ، القائمة بالقرب من قمته ، وعندما اقتربوا منها ، همس (ميشيل) فى توتر :

ـ هناك ضوء ينبعث فى الحجرة .

غمغم (باسل) :

ـ إنها نيران على الأرجح .

تحركوا بسرعة أكبر ، حتى بلغوا الحجرة ..

وهنا اتسعت عينا (باسل) فى دهشة بالغة ..

إنها لم تكن حجرة عادية ، بأى مقياس كان ، بل كانت ـ على الرغم من صغر حجمها نسبيًا ـ أشبه بالقصر ، لفخامة أثاثها ، وأناقة ترتيبها ..

كان هناك فراش صغير ، وثلاثة مقاعد ، ولوحات فنية أصلية على الجدران ، ومدفأة تشتعل داخلها النيران ، وتحف ثمينة ..

وكان هناك شعار ضخم ، يحتل معظم الجدار المقابل .. شعار الكونت (دراكيولا) ..

وفى انبهار كامل ، هتف (ميشيل) :

ـ ما كل هذا ؟ وكأن أميرًا يقيم هنا .

تمتم (ميخا) فى خفوت :

ـ (دراكيولا) هو أمير الظلام .

قال (باسل) :

ـ حقًا ؟!

كان صوته يحمل قدرًا ضخمًا من السخرية ، جعل (ميخا) يلتفت إليه فى حدة ، ويقول بصوت غاضب :

ـ أما زلت تسخر مما تراه يا سيد (باسل) ؟ أى دليل تريد أكثر من هذا ، على وجود الكونت (دراكيولا) ؟

أشار (باسل) بذراعيه لما حوله ، وهو يقول :

ـ وهل يوجد هنا دليل واحد على وجوده ؟!

هتف (ميخا) :

ـ وماذا عن هذا الشعار ؟ أليس شعاره المعروف ؟

مال (باسل) نحوه ، وهو يقول :

ـ اسمع يا هذا .. أنا لا ، ولن أومن بوجود ما تطلقون عليه اسم مصاص الدماء ، فالله (سبحانه وتعالى) وحده يحيى ويميت .. هكذا تقول شريعتى ، وهكذا أومن ، فلا تحاول إقناعى بالعكس ، مهما تصورت قوة حجتك ، ومهما ..

قاطعه فجأة صوت واضح ، يأتى من أسفل ، فهتف (ميشيل) فى ذعر :

ـ ما هذا بالضبط ؟

أجابه (باسل) فى حزم :

ـ سنرى ما هذا بالضبط .. ناولنى مصباحك اليدوى .

قالها وعاد يهبط فى درجات سلم البرج فى حذر ، وهو يحمل المصباح اليدوى الصغير ، بعد أن ترك المشعل فى يد (ميخا) ، وسمع خطوات تصعد فى وضوح ، فانعقد حاجباه ، وتمتم فى صوت شديد الخفوت :

ـ تُرى هل قرّر الكونت (دراكيولا) مواجهتنا .

كان وقع الخطوات يقترب منه صعودًا ، فالتصق بالجدار ، وأطفأ المصباح ، وأرهف سمعه ، حتى أصبحت الخطوات على قيد متر واحد منه ..

ثم أشعل المصباح فى وجه القادم ..

وكانت مفاجأة ..

مفاجأة حقيقية .

★ ★ ★

حدّق (باسل) فى وجه الرجل الواقف أمامه لحظة ، قبل أن يهتف فى دهشة كبيرة :

ـ الضابط (لوركا) ؟!

كيف وصلت إلى هنا ؟

أجابه (لوركا) :

ـ يا إلهى ! لقد أفزعتنى حقًا يا (باسل) .. ماذا تفعل داخل البرج ؟ لقد ظننتك أحد مهربى المخدرات .

قال (باسل) :

ـ لقد أخبرناك أننا فى طريقنا إلى هنا ، ولكن كيف نجحت فى دخول القلعة ؟ لقد ارتفع الجسر ، وعزلها عن المكان .

أجابه (لوركا) فى اقتضاب :

ـ هناك ممر سرّى أعرفه .

ثم أشار إلى أعلى ، مستطردًا :

ـ قل لى : هل رفيقاك بأعلى ؟

أومأ (باسل) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم .. إنهما هناك .

صعد (لوركا) معه إلى تلك الحجرة ، وهتف (ميشيل) عندما رآه :

ـ الضابط (لوركا) ؟! يا لها من مفاجأة .

أدار (لوركا) عينيه فى المكان ، وقال :

ـ يا لها من حجرة فاخرة .. أى سلطان يقيم هنا ؟

أجاب (باسل) مبتسمًا :

ـ المفترض أنه الكونت (دراكيولا) .

أطلق (لوركا) صفيرًا طويلاً ، قبل أن يهتف :

ـ حقًا ؟! فى هذه الحالة ينبغى أن تسرعوا بمغادرة المكان .

سأله (باسل) فى اهتمام :

ـ هل تصدّق مثل هذه الخرافة ؟

أجاب (لوركا) :

ـ بالتأكيد .. أنا أعلم أن الكونت (دراكيولا) حىّ .

هتف (باسل) فى حدة :

ـ ماذا أصابكم جميعًا ؟ كيف تصدّقون أمرًا سخيفًا كهذا ؟! كيف يؤمن أحدكم بأن شخصًا ما ، مهما بلغت قوته ، يمكنه أن يحيا وقتما يشاء ولأية فترة يرغب ؟!

أجابه (لوركا) فى توتر :

ـ اسمع أيها العربى .. هذه أساطيرنا ، التى نصدقها ، و ... بتر عبارته بغتة ، مع جلبة مباغتة ، ارتفعت من أسفل البرج ، فاعتدل الجميع دفعة واحدة ، وهتف (ميشيل) :

ـ ما هذا ؟

انتزع (لوركا) مسدسه ، وقال فى صرامة :

ـ ابقوا فى أماكنكم .. سأتفقد المكان ، وأعود على الفور .

قال (باسل) فى حماس :

ـ سأصحبك إلى أسفل .

التفت إليه (لوركا) فى عنف ، وقال :

ـ كلا .. سأذهب وحدى .. هذا أمر .

لم يكن من حقه فعلاً إصدار الأوامر لـ (باسل) ، إلا أن هذا الأخير لم يشأ إضافة مزيد من التوتر للموقف ، فلاذ بالصمت ، ووقف إلى جوار (ميشيل) و (ميخا) ، فى حين هبط (لوركا) إلى أسفل ، وغاب وسط الظلام ، فتمتم (ميشيل) :

ـ شجاع هذا الضابط .

وقال (ميخا) :

ـ لم أكن لأهبط وحدى ، مهما كانت الأسباب .

تطلّع إليهما (باسل) فى صمت ، ثم عاد ينظر إلى الفتحة ، التى هبط منها (لوركا) وعشرات الأسئلة والأفكار تدور فى عقله ..

وفجأة ، انطلقت صرخة ، رهيبة من أسفل ..

صرخة تحمل صوت (لوركا) وأعقبها دوى ثلاث رصاصات متتالية ، فصرخ (ميخا) فى رعب :

ـ لقد رآه .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى سمع ثلاثتهم خفقات أجنحة قوية ، ثم اندفع خفاش كبير فى الفتحة التى تقود إلى أسفل ، وانطلق يعبر النافذة بسرعة ، فهتف (ميشيل) :

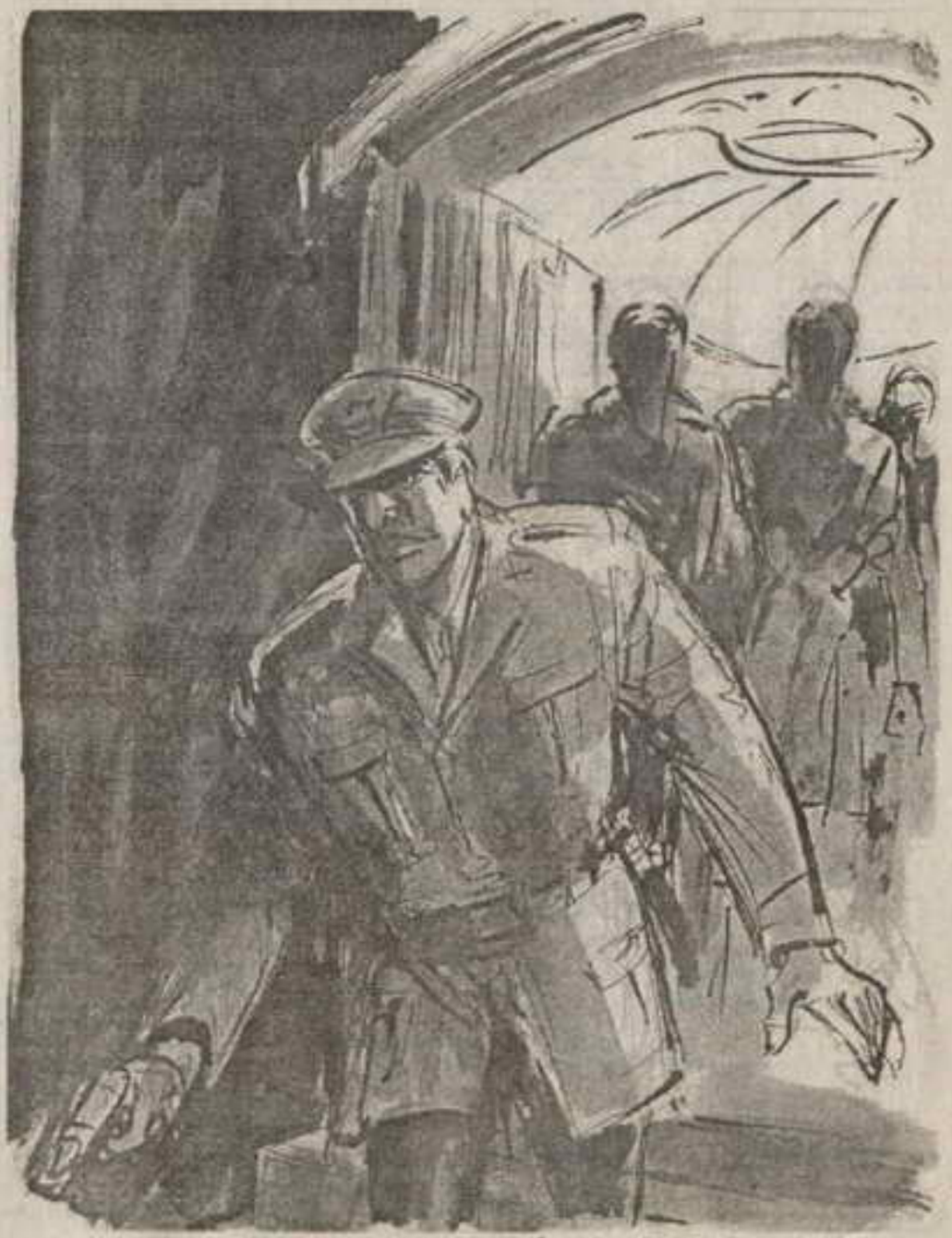

فى حين هبط «لوركا» إلى أسفل وغاب وسط الظلام ..

ـ إنه هو .

صاح به (باسل) :

ـ هل ستصدّق أنت أيضًا هذا الهراء ؟

خفض (ميشيل) عينيه خجلاً وتوترًا ، فى حين اندفع (باسل) نحو الفتحة ، وهم بالهبوط إلى أسفل ، لولا أن ظهر (لوركا) فجأة ، وهو يحمل مسدسه ، الذى تنبعث الأدخنة فى فوهته ، وهتف :

ـ إنه هو .. لقد رأيته بنفسى .. لم أكن لأصدق هذا ، لولا أن رأيته بعينى .

صاح به (ميشيل) :

ـ ماذا رأيت بالضبط ؟

ازدرد (لوركا) لعابه ، ولوّح بمسدسه ، وهو يقول :

ـ لقد هبطت لأستطلع أمر تلك الجلبة ، ولكن المكان كان خاليًا ، وفجأة دخل خفاش من النافذة ، وهبط على الأرض ، ثم فوجئت به ينمو بغتة ، ويتحول إلى .. إلى ..

هتف (ميخا) :

ـ إلى الكونت (دراكيولا) .

أشار إليه (لوركا) بأصابع مرتجفة ، قائلاً :

ـ بالضبط .. لقد وجدته أمامى ، فلم أتمالك نفسى ، وأطلقت صرخة رعب ، ثم رحت أطلق عليه رصاصات مسدسى ، ولكن

الرصاصات اخترقته ، وارتطمت بالحائط ، دون أن يهتز لـه رمش ، وبعدها تحوّل مرة ثانية إلى خفاش ، وصعد إلى هنا .

ثم أخفى وجهه بكفيه ، هاتفًا :

ـ كان أمرًا بشعًا .. بشعًا للغاية .

توتّر (ميشيل) بشدة ، وهو يتراجع مغمغمًا :

ـ إذن فالأمر صحيح .. الكونت (دراكيولا) موجود .

وهتف (ميخا) :

ـ لم أشك فى هذا لحظة واحدة .

أما (باسل) فقد ظل صامتًا ، معقود الحاجبين ، وترك (لوركا) يقول فى عصبية شديدة :

ـ لا بد أن نغادر هذه القلعة ، بأسرع ما يمكننا .

قال (ميشيل) :

ـ كيف ؟! إننا أسرى هنا .

أجابه (لوركا) :

ـ اطمئن .. أعرف طريقًا سريًا للخارج .

هتف (ميخا) فى لهفة مبالغة :

ـ حقًا ؟! قدنا إليه باللّه عليك .. أريد أن أغادر هذا المكان فورًا .

أشار (لوركا) بيده ، وهو يقول :

ـ إنه هناك .. فى الجدار الخلفى .. سنهبط من هنا ، ونعبر الساحة ، ونتجه إلى أطلال البرج الأيسر ، و ...

قاطعه (باسل) فجأة :

ـ أظننى أفضل البقاء هنا .

التفت إليه الجميع فى دهشة ، وهتف (ميخا) :

ـ هل جننت ؟ أتبقى وحدك مع مصاص الدماء ؟

أدهشتهم ابتسامته أكثر ، وهو يقول فى بساطة :

ـ ولِمَ لا ؟ أعتقد أنه طريف للغاية .

قال (ميشيل) فى دهشة :

ـ (باسل) ؟! ماذا أصابك يا صديقى ؟

التفت إليه (باسل) ، وقال :

ـ لا شىء يا (ميشيل) .. فلتقل إننى أحب الخطر ، وأميل إلى قضاء سهراتى مع مصاص الدماء .

صاح (لوركا) فى حدة :

ـ هل تسخر من مصاص الدماء ؟

قال (باسل) :

ـ إننى أسيطر على مشاعرى ، حتى لا أنفجر ضاحكًا يا رجل .

ردّد (ميخا) :

ـ تنفجر ضاحكًا ؟!

كان صوته يحمل من القلق أكثر مما يحمله من الدهشة ، حتى إن (ميشيل) التفت إليه فى حدة ، وقال :

ـ ما الذى يحدث هنا ؟ هناك أمر لا أفهمه .

قال (باسل) فى هدوء :

ـ دعنى أشرح لك إذن يا صديقى .. لقد شاهدنا الليلة مسرحية هزلية سخيفة ، تعرف باسم (ملهاة مصاص الدماء) ، وحان وقت إسدال الستار عليها ، ومواجهة مخرجها المحتال .

والتفت إلى أحد الرجلين ، مضيفًا فى حزم :

ـ أنت .

وكانت مفاجأة جديدة ..

وعنيفة ..

★ ★ ★

٤ ـ الأسطـــورة ..

انعقد حاجبا الضابط (لوركا) فى غضب ، عندما أشارت إليه سبَّابة (باسل) ، وهتف فى حدة ساخطة :

ـ هل جننت أيها العربى ؟! كيف تجرؤ على توجيه اتهام كهذا إلى ضابط فى فرقة مكافحة المخدرات ؟

قال (ميشيل) فى توتر :

ـ (باسل) يا صديقى .. يبدو أن أعصابك المتوترة قد ..

قاطعه (باسل) فى هدوء :

ـ اطمئن يا (ميشيل) .. ليس لأعصابى أى شأن بهذا .. إنها عملية منطقية عقلانية استنتاجية بحتة .. وأنا فى الواقع أشكّ فى كون (لوركا) ضابطًا فى فرقة لمكافحة المخدرات ، بل أعتقد ـ وهذا هو الأرجح ـ أنه أحد كبار مهربى المخدرات فى المنطقة .

اتسعت عينا (ميخا) فى هلع ، فى حين قال (لوركا) فى حدة :

ـ يبدو أن الخوف قد أفقدك صوابك .

أطلق (باسل) ضحكة عالية ، قبل أن يقول :

ـ الخوف ؟! من ماذا يا رجل ؟ إنكم حتى لم تتقنوا اللعبة .

ثم التفت إلى (ميشيل) ، الذى علت الدهشة وجهه ، وقال متجاهلاً الآخرين تمامًا :

ـ صدقنى يا (ميشيل) .. كل ما رأيناه ومررنا به اليوم ، ليس سوى مسرحية هزلية سخيفة ، حاولوا إقناعنا بها ، حتى نتبعد عن تلك القلعة ، التى يتخذونها وكرًا ، لتخطيط وتدبير ، وربما لعقد صفقات المخدرات .

قال (ميخا) فى عصبية :

ـ أى قول أحمق هذا ؟

التفت إليه (باسل) ، وقال :

ـ من الطبيعى أن تقول هذا يا عزيزى (ميخا) ، ما دمت متورطًا فى الأمر .

شحب وجه (ميخا) وتراجع فى حركة حادة كالمصعوق ، فى حين هتف (ميشيل) فى ذهول :

ـ (ميخا) ؟! متسحيل !

ربّت (باسل) على كتفه مهدئًا ، وهو يقول :

ـ اهدأ يا صديقى ، وسأشرح لك الأمر كله .. هل تذكر البداية هذا الصباح ، عندما أخبرتنى بأمر تلك القلعة السرّية ؟ إننا لم نكد نأتى على ذكرها ، حتى أصيب (ميخا) بتوتر شديد ، وراح يثير رعبنا وخوفنا ، فى محاولة لمنعنا من زيارتها ،

وعندما فشلت محاولته هذه ، وافق على مرافقتنا إليها ، وهو الذى كان يرتجف خوفًا لمجرّد ذكر اسمها .. لقد أثار هذا شكوكى فى البداية ، ولكننى لم أنتبه حينذاك إلى أن المحادثة الهاتفية ، التى ادعى أنها لزوجته ، كانت فى الواقع لهذا الرجل (لوركا) ، أو لأحد أعوانه ، حتى يستعد لاستقبالنا ، وإثارة رعبنا .

قال (ميشيل) ذاهلاً :

ـ ولكن الجميع فى البلدة يقولون ..

قاطعه (باسل) ..

الجميع فى البلدة يردّدون ما نجح هؤلاء المهربون فى غرسه فى عقولهم ، خاصة وهم ينشرون شائعات مخيفة ، وينطلقون بتلك العربة المصبوغة بالسواد ، فى الليالى المقمرة ، لإثارة الرهبة والخوف ، اللذين يساعدان على ابتعاد الناس ، وعزوفهم عن الاقتراب من القلعة ، وبهذا يخلو الجو تمامًا لمهربى المخدرات .

ازداد (ميخا) شحوبًا وانكماشًا ، فى حين قال (لوركا) فى حدة :

ـ وماذا عن الشبح ، الذى رآه (ميشيل) ؟

تألقت عينا (باسل) ، وهو يقول :

ـ هذا الشبح هو دليل جديد لإدانتك يا (لوركا) .. فلم يشر

أحدنا إلى هذا الأمر ، منذ وصولك ، فكيف إذن أمكنك معرفته ، لو لم تكن أحد المشاركين فى صنعه ؟

التقى حاجبا (لوركا) فى شدّة ، فى حين تابع (باسل) فى ثقة :

ـ وصولك بالذات هو الذى فجّر كل الشكوك فى أعماقى يا (لوركا) ، فعلى الرغم من محاولتك إخافتنا فى الدغل ، تفجّرت فيك شجاعة مباغتة ، جعلتك تأتى إلى القلعة ، التى حذرتنا من الاقتراب منها ، بل وتعبر ممرًا سريًا إليها ، وبعدها تفتعل تلك المشاجرة الوهمية مع مصاص دماء مزعوم ، يتحوّل إلى خفاش .. والواقع أنكم تجيدون العبث بتلك الخفافيش . وبخاصة ذلك الذى أطلقه أحدكم فى وجهى ، عندما كنت أهم بالدخول عبر النافذة .

قال (ميشيل) مبهورًا :

ـ وماذا عن الأعين شبه البشرية الحمراء ؟

أجابه (باسل) فى بساطة :

ـ مجرّد مصباح صغير يا صديقى ، ألصقت فوقه تلك الأعين الحمراء ، فبدا فى الظلمة كزوج من الأعين المخيفة .

قال (لوركا) فجأة بحدّة :

ـ على الرغم من أناقة استنتاجك هذا ، إلا أنه يفتقد الدقّة ، فما تزال هناك نقطة تعجز عن تفسيرها .

سأله (باسل) فى هدوء :

ـ وما هى ؟

أجابه فى شىء من الشجاعة :

ـ لو أننا مهربو مخدرات كما تدّعى ، فلماذا نحاول إخافتكما ، بدلاً من أن نقتلكما وننهى الأمر ؟

ابتسم (باسل) وهو يقول :

ـ سؤال طريف يا رجل ، ولكن الجواب أكثر طرافة ، فقتلنا لا يفيدكم كثيرًا ، كما يفيدكم إفزاعنا فحسب ، فهذا الفزع سيصبح نقطة تقوية ، بالنسبة للخرافة التى تنشرونها .. وعودتنا بوجوه شاحبة تخدم أغراضكم ، بأكثر مما تفعل جثثنا .. ثم إن قتلنا قد يثير رجال الشرطة والأمن والصحافة ، فتصبح هناك مشكلات عديدة ، أنتم فى غنى عنها .

انتهى (باسل) من عبارته ، فران على المكان صمت رهيب ، قطعه (ميشيل) ، وهو يهتف :

ـ إذن فالأمر كذلك .

بدا (ميخا) منهارًا ، وهو يقول :

ـ أستاذ (ميشيل) .. أقسم لك إننى لم أكن أقصد أن ..

صاح به (ميشيل) فى غضب :

ـ اصمت أيها الخائن .. إنك لا تستحق حرفًا واحدًا ، ألقيه على مسامعك .. إنك خائن جبان .. وسترى ما سأفعله ، عندما أعود إلى الجريدة ، وأفضح هذا كله .

ولكن (لوركا) استلّ مسدسه بغتة ، وصوّبه إلى (باسل) و (ميشيل) ، قائلاً فى صرامة وعصبية :

ـ هذا لو عدت إليها .

تراجع (ميشيل) بحركة حادة ، وهو يهتف :

ـ ماذا ستفعل يا رجل ؟

هزّ (لوركا) كتفيه ، وقال :

ـ لم يعُد لدينا خيار آخر ، فصديقك العربى هذا أذكى وأشجع مما توقّعنا ، واستنتاجه جاء دقيقًا لدرجة مدهشة ، ولم يعد بإمكاننا الإبقاء عليكما .

التقى حاجبا (ميشيل) فى توتر بالغ ، وهو يقول :

ـ هل .. هل ستقتلنا ؟

هزّ (لوركا) كتفيه ، وقال :

ـ ألديك حل آخر ؟

التفت (ميشيل) إلى (ميخا) ، وقال فى عصبية :

ـ (ميخا) .. هل ستتركه يفعل هذا ؟

أشاح (ميخا) بوجهه ، متمتمًا :

ـ معذرة يا سيِّد (ميشيل) .. لا يمكننى مخالفة أوامر الزعيم .. ثم إنه على حق .. لا يوجد حل آخر .

اعتدل (باسل) ، وهو يقول :

ـ من قال هذا ؟ هناك حل آخر بالتأكيد .

سأله (لوركا) فى سخرية :

ـ ما هو أيها الذكى ؟

وهنا ألقى (باسل) المشعل بغتة فى وجه (لوركا) الذى انحنى لتفاديه ، ولكنه ، وقبل أن يعتدل ، فوجئ بقبضة (باسل) فى فكه ، فسقط مسدسه أرضًا ، وارتطم رأسه بالجدار ، فترنح فى عنف ، ودارت عيناه فى محجريهما ، وقبل أن يتمالك نفسه ، هوى (باسل) على فكّه بلكمتين أخريين ، أسقطه فاقد الوعى ، فصاح (ميخا) ، وهو يهاجم (باسل) :

ـ لا .. لا يمكنك أن تفعل هذا .

استقبله (باسل) بلكمة فى أنفه ، وهو يقول :

ـ من قال هذا ؟

ثم أتبعها بثانية فى فكه ، مستطردًا :

ـ أنت أم الكونت (دراكيولا) .

سقط (ميخا) أيضًا فاقد الوعى ، فأسرع (باسل) يلتقط مسدس (لوركا) فى حين هتف (ميشيل) فى انفعال :

ـ رائع .. رائع يا (باسل) .. سنلقى القبض عليهما ، ونرحل من هنا .

ولكن فجأة ، ارتفع صوت يقول :

ـ ليس بعد أيها السيدان .

التفت الاثنان بسرعة إلى مصدر الصوت ، عند الفتحة التى تقود إلى أسفل البرج ، ورأيا أمامهما مدفعًا آليًا ، مصوبًا إلى رأسيهما مباشرة ، وخلفه آخر شخص يتوقعان رؤيته !!

الكونت (دراكيولا) ..

شخصيًا ..

★ ★ ★

مضت لحظات طويلة من الصمت ، و (باسل) و (ميشيل) يحدّقان فى وجه الكونت (دراكيولا) ، ببشرته المائلة إلى الزرقة ، وعينيه الحمراوين ، وأنيابه البارزة ، وثيابه الحالكة السواد ، ثم هتف (ميشيل) :

ـ إنه هو .. هو نفسه الذى رأيته .

قال (باسل) وهو يخفض مسدسه :

ـ تنكر بارع ، يمكن أن يخدع أى ساذج يصدق حكايات مصاص الدماء هذه .

ابتسم الرجل المتنكر فى هيئة الكونت (دراكيولا) ، وهو يقول :

ـ إذن فأنت لا تصدّق أننى مصاص دماء حقيقى .

هزّ (باسل) كتفيه ، ومطّ شفتيه ، قائلاً :

ـ لا يوجد شىء اسمه مصاص دماء يا رجل .. أنت تعلم هذا جيّدًا .. ثم ما حاجة مصاص دماء أسطورى لمدفع آلى .

أطلق الرجل ضحكة ساخرة ، وقال :

ـ صدقت يا فتى .. المدفع الآلى مفيد لى وحدى ، لأمنعكما من مغادرة القلعة .

قال (باسل) فى برود :

ـ من يدرى ؟ ربما عجزت عن ذلك .

أطلق الرجل ضحكة أخرى ، ثم أخرج جهازًا صغيرًا من جيبه ، وهو يقول :

ـ أتقصد نجاحكما فى الهروب من هنا ؟! كم أتمنى لو أنكما فعلتما .. هل تعلم ما هذا الذى أمسكه بيدى ؟ إنه جهاز تحكم عن بعد (ريموت كنترول) .. أتدرى أى شىء أتحكّم فيه بهذا

الجهاز ؟ إنه قنبلة صغيرة ، وضعتها داخل سيارتكما ، ولو نجحتما فى الفرار ، وابتعدتما مائة متر كاملة ، يكفى أن أضغط هذا الزر الصغير ، فتنفجر السيارة هكذا .

قالها وضغط الزر ، فدوى انفجار السيارة فى الخارج ، وبدا وهج النيران واضحًا ، وقال (ميشيل) فى توتر :

ـ لقد فعلها .

قال الرجل ساخرًا :

ـ الآن لم تعد أمامكما وسيلة واحدة للعودة إلى البلدة .

ثم أشار إلى (لوركا) و (ميخا) الفاقدى الوعى ، مستطردًا فى صرامة :

ـ والآن هيا .. حاولا إنعاش هذين الزميلين .

تبادل (باسل) و (ميشيل) نظرة سريعة ، ثم خفض هذا الأخير عينيه ، وغمغم فى مرارة وأسى :

ـ هيّا يا (باسل) .. ليس أمامنا سوى طاعته .

عقد (باسل) ساعديه أمام صدره ، وهو يقول فى حزم :

ـ لن أطيع مجرمًا كهذا .

بدا الغضب على وجه الرجل ، وهو يصوّب فوهة مدفعه إلى (باسل) ، قائلاً :

ـ بل ستطيع أوامرى أيها العربى .. إنك لا تعلم ما يمكننى فعله .. إننى ألعب دور سائق سيارة الموت منذ خمسة أعوام ،

قتلت خلالها عشرة أشخاص ، ولن يضيرنى أن أضيف اثنين إلى قائمتى .

تجاهله (باسل) تمامًا ، وهو يلتفت إلى (ميشيل) ، قائلاً :

ـ هل لاحظت هذا ؟ يقول منذ خمس سنوات .. أى منذ تصور أهالى البلدة أن الكونت (دراكيولا) قد استيقظ .

صاح الرجل فى ثورة :

ـ لا تتجاهلنى أيها العربى .

استدار إليه (باسل) فى برود وقال :

ـ ولكنى أهوى تجاهل أمثالك .

صرخ الرجل :

ـ فليكن أيها العربى .. أنت أردت هذا .

وضغط زناد مدفعه الآلى ..

ولكنها كانت مباراة فى سرعة الحركة وحسن التصرف ..

لقد أدرك (باسل) أن الرجل سيضغط زناد مدفعه حتمًا ، فانتظر حتى اللحظة الأخيرة ، ثم دفع (ميشيل) جانبًا ، وهو يهتف :

ـ ابتعد يا صديقى .

وانحنى يختطف منضدة صغيرة ، قذفها فى وجه الرجل ، فى نفس اللحظة التى أطلق فيها رصاصات مدفعه ، التى طاشت فى الهواء ، قبل أن ينقضّ عليه (باسل) ، هاتفًا :

ـ أخطأت يا رجل ، عندما تركت لغضبك العنان .

وكال له لكمة كالقنبلة ، مستطردًا :

ـ فالغضب هو العدو الأوّل للعقل .

وأتبعها بثانية كالصاعقة ، مضيفًا :

ـ ولحسن التصرف والإدراك .

كانت لكمتا (باسل) قويتين بالفعل ، مما أفقد الرجل وعيه وتوازنه ، فسقط منه مدفعه ، وهوى جسده متدحرجًا على درجات السلم ، حتى سقط أسفل البرج ..

وهتف (ميشيل) ، وقد أصابه انبهار تام :

ـ (باسل) .. أنت عظيم يا (باسل) .. أنت أعظم عربى عرفته ، فى حياتى ..

أجابه (باسل) :

ـ العظمة للّه (سبحانه وتعالى) وحده يا رجل .. هيّا .. عاونى لنحكم وثاق هؤلاء الرجال .

تعاونا على إحكام وثاق الرجال الثلاثة ، ثم قال (ميشيل) فى قلق :

ـ ولكن كيف نغادر القلعة ، ونعود إلى البلدة ، بعد أن نسفوا سيارة الجريدة ؟

قال (باسل) :

ـ هناك وسيلة مضمونة ، لو أمكننا العثور عليها .

سأله (ميشيل) فى حيرة :

ـ ما هى بالضبط ؟

ابتسم (باسل) ابتسامة غامضة ، وهو يقول :

ـ انتظر حتى تراها بنفسك .

تبعه (ميشيل) ، وهو يبحث عن تلك الوسيلة ، فى المداخل المطلّة على ساحة القلعة ، حتى سمعه يهتف فى ارتياح :

ـ ها هى ذى .

ارتفع حاجبا (ميشيل) فى دهشة ، عندما وقع بصره على ما يقصده (باسل) ..

كانت العربة السوداء ، ذات الجياد الأربعة ، تستقر داخل حظيرة خاصة ، ولقد ربّت (باسل) على عنق أحد الجياد ، قائلاً :

ـ هل رأيت حكمة اللّه (سبحانه وتعالى) يا صديقى .. العربة التى أطلق عليها هؤلاء المجرمون اسم (عربة الموت) ، ستكون هى بإذن اللّه وسيلتنا للنجاة .

ابتسم (ميشيل) فى ارتياح ، وهو يقول :

ـ أكاد أتخيّل دهشة أهل البلدة ، عندما يروننا أمامهم ، مع تلك العربة السوداء ، وبداخلها ذلك الذى ينتحل شخصية الكونت (دراكيولا) ، موثوق اليدين والقدمين .. ستكون مفاجأة مدهشة لهم .

قالها وانطلق يضحك بملء فيه .. لقد انزاح عن كاهله حمل ثقيل .. بل عن كاهل بلدة بأكملها .

★ ★ ★

أعلنت أجهزة مطار (بوخارست) ، عن استعداد طائرة (مصر) للطيران للإقلاع . فابتسم (ميشيل) ، وهو يصافح (باسل) ، قائلاً :

ـ لسنا ندرى كيف يمكننا أن نشكرك يا (باسل) .. لقد كنت رائعًا بحق .. هل تعلم أن (ميخا) و (لوركا) أدليا باعترافات تفصيلية رهيبة ، أدت إلى إلقاء القبض على شبكة كاملة لتهريب المخدرات ، كادت تفتك بشبابنا ؟

أجابه (باسل) بابتسامة متواضعة :

ـ كم يسعدنى أن أسهمت فى هذا .

هتف (ميشيل) :

ـ أسهمت ؟! إنك صاحب النسر كله يا رجل .

هزّ (باسل) كتفيه ، وقال :

ـ ربّما ، لقد ساعدنى اللّه (سبحانه وتعالى) فى هذا الأمر .

تطلّع إليه (ميشيل) فى إعجاب ، وقال :

ـ أنت متواضع للغاية يا (باسل) .

قال (باسل) فى هدوء :

ـ بل هى حقيقة ، يؤمن بها كل مؤمن يا رجل .

تصافحا فى حرارة ، وقال (ميشيل) وهو يودّعه :

ـ حاول أن تأتى لزيارتنا مرة أخرى يا (باسل) ..

سيسعدنى أن أستقبلك دائمًا هنا ، ورئيس التحرير يتمنى لو أنك كتبت القصة كلها فى مقال طويل ، تنشره الصحيفة فى صفحتها الأولى .

ابتسم (باسل) ، وقال :

ـ بإذن اللّه يا صديقى .. بإذن اللّه .

وعندما أقلعت الطائرة ، عائدة إلى المملكة ، ظلّ (ميشيل) يلوّح بيده طويلاً ، حتى أدركه التعب ، وغابت الطائرة عن الأنظار ، ثم غمغم :

ـ إلى اللقاء يا صديقى العربى .. إلى اللقاء يا أشجع وأذكى من رأيت .

قالها وهو يقصد كل حرف فيها .. ويدرك أن هذا الشاب قد صنع ما عجز عنه أهل تلك البلدة فى جبال (ترانسلفانيا) ..

لقد حطّم هذا العربى أسطورة عاشت طويلاً ..

أسطورة القلعة ..

قلعة الأسرار .

★ ★ ★

(تمت بحمد اللّه)

حلول اختبر معلوماتك

١ ـ برتراند راسل .
٢ ـ الأزتك .
٣ ـ الكراوية .
٤ ـ أصل الأنواع .
٥ ـ سيد درويش .
٦ ـ البوتاسيوم .
٧ ـ جزر بهاما .
٨ ـ تشارلز ديكنز .
٩ ـ الزعفران .
١٠ـ عثمان بن عفان .
١١ ـ كندا .
١٢ـ أرنولد شوارزينجر .
١٣ ـ الحدأة .
١٤ـ الحجر الجيرى .
١٥ ـ الحجاج بن يوسف الثقفى .
١٦ـ سكاراموش .
١٧ ـ السكارين .
١٨ـ بوريس فاليجو .
١٩ ـ الملوخية .
٢٠ـ بوب كين .

باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

روايات مصرية للجيب

١١١٩٩

فى هذا الكتاب

صفحة

التماس (قصة قصيرة) ـــــ ٥

اختبر معلوماتك ـــــ ٩

السيف (قصة كاملة) ـــــ ١٧

المرأة مشكلة ... صنعها الرجل (دراسة) ـــــ ٥٧

ناى .. سلسلة جديدة :

عدلية (الأستاذ) .. الحلقة الثانية ـــــ ٦٩

مذكرات طبيب (خواطر) ـــــ ١١٥

قمة العدد :

(قلعة الأسرار) ـــــ ١٣٩

عزيزى القارئ (١) ـــــ ٢٠٤

عزيزى القارئ (٢) ـــــ ٢٢٣

حلول اختبر معلوماتك ـــــ ٢٦٧

مطابع دار الهلال

الثمن فى مصر ٢٠٠ مليما
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم